التحيز اللغوي
مظاهره وأسبابه*

حمزة بن قبلان المزيني

* هـذا البحث كان محاضرة ألقاها الدكتور المزيني في النادي الأدبي الثقافي بجدة ، بتاريخ 1413/8/16هـ، الموافق 7-2-1993م..

ظـــلت اللغة واحدة من الخصائص الإنسانية التي أثارت انتباه الإنســـان طـــوال العصور ، فكان اكتساب الإنسان لها وتنوعها من مجـــتمع إلى مجتمع آخر ، ومقارنة تلك الأنواع بعضها ببعض مسائل لم يـــتوقف الإنسان منذ القديم عن التفكير فيها واقتراح تفسيرات لها ؛ ومـــن اللافـــت للنظر أن تفسيرات هذه الظواهر كثيراً ما تتشابه في الحضـــارات المختلفة ؛ فنحن نجد في كل حضارة من يرى أن لغة تلك الحضـــارة هـــي أول اللغات نشأة ، وأن اللغات الأخرى لم تنشأ إلا مـــتأخرة نتيجة لعقاب إلهي ، وأن تلك اللغة تتفوق على ما عداها ، فهـــي الأجمل والأكمل والأكثر منطقية إلى غير ذلك من الصفات المميزة .

وســـوف أتناول في هذا البحث مسألة التحيز اللغوي عارضاً نماذج له في حضارات مختلفة ، قديمة وحديثة ، وسوف يبين البحث أن هـــذه الـــنماذج للـــتحيز اللغوي تنبع من أسباب أعمق ، ومن تلك الأسباب : العنصرية العرقية ، والتحيز الثقافي ، والجهل بطبيعة اللغة.

وما يعنيني أكثر من غيره في هذا البحث إيضاح أن ما يسود في الـــثقافة العربية عن تميز اللغة العربية عن غيرها ليس إلا وجهاً من أوجـــه ذلـــك الـــتحيز ؛ وبمـــا أنـــه قد ثبت علمياً أن الاعتقادات والتفسيرات التي تنتج عنه ليست صحيحة ، فإنه ينبغي تخليص دراسة الـــلغة العربية منها ، كما أنه لا يمكن للبحث اللساني في اللغة العربية

أن يـــتقدم إلا بالتخلي عنها ومقاربة اللغة العربية بوصفها لغة إنسانية تتصـــف بمـــا تتصف به اللغات الإنسانية الأخرى ، ويجري عليها من القوانين ما يجري على غيرها .

مقدمـــة

يشمل التحيز اللغوي أنواعاً كثيرة : فمنه النظر إلى لغة معينة أنهـــا أقدم اللغات وجوداً وأنها أكثر اللغات منطقية في نظمها ، وأنها أجمـــل وأكفـــأ في التعـــبير مما عداها . كما أنه يشمل أن مستوى من مســـتويات الـــلغة المعينة يتميز عما عداه من المستويات في تلك اللغة المعـــنية بالصـــفات الـــتي ذكرنا . وقد شمل أن نطق صوت معين أو خصيصـــة معينة في لغة ما أجمل مما يقابله في المستويات الأخرى لتلك الـــلغة أو الـــلغات الأخـــرى ، ويشمل أيضاً أن كلام فئة معينة من متكـــلمي لغة ما يتميز على كلام الفئات الأخرى ، وبالجملة فإنه لا حـــد لأنواع التحيز ، كما أن وجوده ليس مقصوراً على فترة تاريخية معينة ولا هو مقصور على متكلمي لغة واحدة ، بل هو ظاهرة موحدة في كل المجتمعات وفي كل اللغات وفي كل العصور .

ولا أريـــد في هذا البحث أن أستقصي وجود التحيز اللغوي في الـــلغات كـــلها بل سوف أقتصر على بحثه في الحضارة الأوروبية والحضـــارة العـــربية الإســـلامية ، لكنه يحسن من باب التدليل على وجوده في حضارات أخرى أن أورد المثال التالي :

يقـــول بيتر فارب إن كثيراً من الجماعات اللغوية تشعر بأن لغتها هي الأفضل أو أنها هي اللغة الإنسانية الأصل ، ويذكر من تلك الجماعات " الشامولاس " Chamulas وهي جماعة لغوية في المكسيك ،

و" الروندي " Rundi في إفريقيا ، و" التشكتاو " Chictaw وهي قبيلة من قبائل الهنود الحمر كانوا يسكنون في جنوب ولاية لويزيانا في أمريكا ، فيرى التشكتاو مثلاً أن لغتهم كانت أقدم اللغات . وتأتي قصة الخلق وتمايز اللغات عندهم على النحو التالي :

قبل أجيال عديدة مضت أظهر " أبا " Aba وهو الروح الطيبة المتعالية رجالاً كثيراً كلهم من قبيلة التشكتاو الذين كانوا يتكلمون لغة التشكتاو ويفهم بعضهم بعضاً . وقد برز " أبا " هؤلاء من طين أصفر أخذ من صدر الأرض ، ولم يسبق أن وجد قبلهم أحد من الرجال . وفي أحد الأيام اجتمع رجال التشكتاو وأخذوا في التفكير في ماهية السحاب والسماء . واستمروا في التفكر والنقاش فيما بينهم حتى استقر أمرهم على الصعود إلى السماء لاكتشاف ما فيها . لذلك فقد جمعوا أحجاراً كثيرة وبدؤا في بناء برج خططوا له أن يلامس السماء، وفي تلك الليلة هبت رياح عاتية من السماء فهدمت البرج وتناثرت أحجاره فوقهم . غير أن الرجال لم يقتل منهم أحد . وفي الصباح خرجوا من تحت الأنقاض وأخذ بعضهم يكلم بعضاً ، غير أنهم شدهوا وفوجئوا وأصابتهم الحيرة بسبب أنهم أصبحوا يتكلمون لغات متعددة بحيث لم يستطيعوا فهم بعضهم بعضاً. ومنذ تلك الحادثة استمر بعضهم يتكلم اللغة الأصلية لغة التشكتاو ومن هؤلاء جاءت قبيلة التشكتاو الحالية . أما الآخرون وهم الذين لم يستطيعوا الفهم عن هؤلاء فقد بدأوا يتقاتلون ، وفي النهاية تشتتوا. أما التشكتاو فأصبحوا هم الأصل[1].

وتماثل هذه القصة قصة برج بابل الشهيرة التي نجد صداها في بعض المصادر العربية .

ومسألة التحيز اللغوي يمكن أن ينظر إليها على أنها مثال لما

يطــلق عليه تشومسكي " مشكلة أورويل " نسبة إلى جورج أورويل الــروائي الأيرلــندي صــاحب الــرواية الشهيرة "**1984**". ويميز تشومســكي بــين " مشكلة أورويل " ومشكلة أخرى هي " مشكلة أفلاطون ". فتعني " مشكلة أفلاطون " أنه على الرغم من قصر حياة الفــرد فإنــه يعرف أموراً كثيرة من غير أن يكون لديه أدلة واضحة عليها . ومن ذلك أن الطفل يستطيع اكتساب اللغة في فترة وجيزة لا تــزيد عن أربع سنوات مع أن ما يسمعه من كلام المحيطين به لا يمثل إلاّ جــزءاً ضئيلاً منها ، كما أن ما سمعه ليس مثالاً صالحاً لها في كثير مــن الأحيان . أما مشكلة أورويل فنقيضتها إذ أننا لا نعرف إلاّ شيئاً ضــئيلاً عن بعض الأمور مع أن الأدلة التي يمكن أن تعيننا على الفهم والمعــرفة غنية جداً ، ويمثل تشومسكي لذلك بالأنظمة السياسية التي يمكــن بطريق مباشر أو غير مباشر أن تغرس بعض الأفكار والمفاهيم المغــلوطة في أذهان الناس على الرغم من أنه يمكن وببساطة اكتشاف زيــف تلك المفاهيم ، غير أن الناس قلّما يصرفون انتباههم إلى تلك المغالطات فتظل سائدة لا تساءل[2].

فالتحيز اللغوي يمكن اكتشاف زيفه بكل بساطة ، وذلك عن طــريق الــنظر في طبيعة اللغات الإنسانية ومقارنتها بعضها ببعض ، وكذلك فيما يخص اللغة العربية بالنظر في المصادر العربية نفسها التي تبين أن كثيراً من المعتقدات الشائعة عنها ليس صحيحاً .

ولــتدليل عــلى زيف التحيز اللغوي فسأعرض لمظاهره في الدراســات الغــربية أولاً ، وســوف نجد أن كثيراً من مظاهره كان مدفوعاً بالتعصب العرقي الذي كان سائداً في أوروبا في القرن الثامن عشــر والتاســع عشر ، كما أنني سوف أعرض لمظاهره في المصادر

العـــربية القديمة . وسوف يتبين أنه وجد نتيجة للسجال القومي الذي ساد خاصة في العصر العباسي . كما سيتبين أن المصادر العربية نفسها فيهـــا مـــن الأدلة ما يكفي لبيان أن ذلك التحيز لا حقيقة له . كما ســيتعرض البحث لدراسة هذه الظاهرة في الدراسات المتعلقة بالعربية في العصر الحاضر . وسوف نجد أيضاً أن أسبابها ليست علمية . فهي مدفوعـــة إمـــا بالرغبة في الحط من اللغة العربية والعرب أو بالدفاع عنهما .

التحيز اللغوي في الدراسات الغربية :

شـــابه الغربيون غيرهم من الأمم في مظاهر التحيز اللغوي ، غير أنهم لم يكتفوا بالشكل العام لهذه القضية . فبدلاً من الزعم المجرد بـــتفوق لغـــاتهم على غيرها فقد أخذوا في القرون الأخيرة بالتنظير له واستخدام منجزات العلم في التدليل على صحة دعاواهم .

وقـــد ظهـــر مؤخراً كتاب جيد عن هذا الموضوع في أوروبا بعـــنوان : لغات الجنة : العنصرية والدين والفلسفة في القرن التاسع عشـــر . ومؤلفه هو موريس أولندر ، ونشر بالفرنسية سنة 1989م وتـــرجمه إلى الإنجـــليزية آرثر جولد هامر ، ونشرته دار النشر التابعة لجامعـــة هارفـــارد في سنة 1992م[3] . ومع أن المؤلف يذكر أن هذا الكتاب ليس إلاّ صورة أولية لبحث أوسع يقوم به عن هذه القضية . فإنـــه يعطي صورة واضحة عنها في التفكير الأوروبي . وسوف أعتمد اعـــتماداً يكـــاد يكون كلياً على كتاب أولندر بل إنني سوف ألخص كثيراً من المعلومات والآراء التي جاء بها وأترجم بعض المواضع منه .

كـــان الرأي السائد في أوروبا في العصور الوسطى أن العبرية

هي اللغة التي تكلمها آدم في الجنة وهذه هي النظرة الكنسية الرسمية. وكـــان هناك من يقول إنها السريانية وهناك من يقول إنها الكلدانية . كمـــا كـــان هناك من يعارض هذه الآراء ويجحد أن يكون الله علّم الإنسان أي لغة .

أما في عصر النهضة فقد كان أصل اللغة الإنسانية واحداً من المواضـــيع الـــتي اهتم بها الباحثون اهتماماً كبيراً . ومع ظهور الوعي القومـــي فقد أخذت هذه القضية وجهاً جديداً إذ حاولت كل أمة في أوروبـــا أن تبرهن على أن لغتها ، هي ، كانت اللغة التي تكلمها آدم في الجـــنة . ولذلك نجد أن بعضهم قال بأنها الفرنسية ، وقال آخرون أنهـــا الألمانيـــة ، كما قال آخرون بأنها السويدية . كما ارتبطت هذه الآراء بالبحث عن المكان الذي كانت فيه الجنة . وفي الفترة التي تلت عصر النهضة اكتشف الأوروبيون أن بين لغاتهم كثيراً من التشابهات ممـــا حدا بهم إلى القول بوجود أصل مشترك تنتسب إليه هذه اللغات كلها . وقد اقترن البحث عن هذا الأصل المشترك بالبحث عن المكان الأول الـــذي جـــاء منه متكلمو هذه اللغات . وقاد هذا البحث إلى مقارنـــة هـــذه اللغة المشتركة بالعبرية . وكان من نتيجة ذلك أن بدأ الأوروبيون يزيحون اللغة العبرية عن المكانة التي كانت تحتلها وإحلال هـــذه الـــلغة المفترضة مكانها ، وكان من نتيجة ذلك أيضاً أن صاغ الأوروبيـــون مصـــطلحات جديـــدة لتمييز الأسر اللغوية بعضها عن بعـــض: فلغات أوروبا تنحدر من لغة واحدة سميت الآرية، أما العبرية والعربية وغيرهما من اللغات الشبيهة فقد سميت السامية .

وكـــان هـــذا البحث يرتبط أيضاً بالبحث عن المكان الذي كانت فيه الجنة ، فقد رأى هردر (1744 1803) مثلاً أنها لابد أن تكـــون في شمال الهند على ضفاف نهر الجانج . ولما كان هذا البحث

محمـــلاً بالأفكار العلمانية التي سادت في عصر الأنواع كما يسمى أي القرنين السابع عشر والثامن عشر فقد بدأ الأوروبيون ينظرون إلى الكـــتاب المقـــدس نظرة أخرى . فقد رأوه كتاباً أسطورياً مكتوباً بـــلغة شعرية فائقة الجمال . كما نظروا إليه من ثم على أنه يمثل تصور الساميين لبداية تاريخ الإنسان ، وكان هذا الرأي يتأسس على فكرة شاعت في ذلك الوقت عن الارتباط اللازم بين الفكر واللغة . فاللغة مرآة للفكر ، وهي التي تمثل روح الجماعة التي تتكلمها . فنظرة الأمة المعينة إلى الكون محكومة بتركيب لغتها التي تنسق الكون على صورة معيـــنة . فالكـــتاب المقدس إذن لا يصور وحياً إلهياً بل تصوراً عبرياً سامياً عن الكون أملته اللغة العبرية ، مع أنه لا خلاف على جمال هذا التصور .

وقـــد أنتجت المقارنات اللغوية بين لغات أوروبا علْماً جديداً هو علم اللغة المقارن الذي أصبح له تقنياته المميزة . وباتصال أوروبا عن طريق الاستعمار بحضارات أخرى أخذ العلماء بتطبيق أفكار علم الـــلغة المقارن على اللغات التي اتصلوا بها . على أن أكبر حدث كان اكتشاف وليم جونز (1746 1794) للصلة بين اللغة السنسكريتية وهـــي إحـــدى اللغات الهندية المقدســـة القديمة ، واللغتين اللاتينية والإغريقية . وقد أشعل هذا الاكتشاف خيـــال الأوروبيين في مجالات عديـــدة ، خاصـــة في دراســـة اللغة . فقد استطاعت أوروبا بهـــذا الاكتشاف أن تدفع تاريخها نحو القدم مئات السنين . كما مكنها من الخـــروج مـــن ضيق أوروبا إلى مساحة تشغل جـــزءاً كبيراً من آسيا بالإضافة إلى أوروبا . وقد أدخل هذا الاكتشـــاف تعديلاً كبيراً على الأفكار الخاصة باللغة القديمة . فكان أن اشتغل الباحثون بالبحث عن الجـــذور اللغوية والتاريخية للأصل اللغوي المشترك الذي يشمل لغات

الهند ولغات أوروبا . وكان من نتيجة ذلك أن اقترح الباحثون أصلاً واحداً لها أسموه فصيلة اللغة الهندية الأوروبية .

ولما كان للسنسكريتية كتاب مقدس هو القيدا فقد أخذ الأوروبيون هذا الكتاب بديلاً للكتاب المقدس يرون فيه تاريخهم ، كما أخذ التنوع الكبير للغات الهندية الأوروبية والمساحة الشاسعة التي تشغلها : من الهند شرقاً إلى الحدود الغربية لأوروبا على أنه دليل على قدرة هذا العرق على الانتشار مكتسحاً كل الشعوب التي تقف في طريقه . ويقارن هذا بإخلاد الساميين إلى رقعة صغيرة من غرب آسيا . كما أ ن الانتشار الواسع أتاح للجنس الآري تنوعاً كبيراً في الأديان واللغات ، أما الجنس السامي فاقتصر على تنوع بسيط بين لغاته .

أما الصلة بين العرقين فقد حسمت منذ أمد طويل . فقد افترقا في فترة مبكرة من التاريخ ونهج كل واحد منهما طريقاً مميزاً منذ ذلك الحين ، وقد حددت العناية الإلهية وظيفة كل واحد منهما ، فقد استطاع الآريون تسخير الطبيعة واستغلال الزمان والمكان، واختراع الأساطير ، والعلم والفن ، أما الساميون فإنهن انطووا على عقيدتهم التوحيدية .

هذه إذن هي الظروف التي نشأت فيها دراسة اللغة في أوروبا: فهي ظروف لعب فيها التحيز العنصري دوراً كبيراً نتيجة لما رآه الأوروبيون منجزات للجنس الآري في العلم . ولذلك فقد اصطبغت دراسة اللغة بهذه العوامل العنصرية مما جعل النتائج التي توصلوا إليها أبعد ما تكون عن الموضوعية .

ودليلاً على هذه التوجهات العنصرية في دراسة اللغة يفصل

أولـــندر القول في آراء عدد كبير من الفلاسفة واللغويين الأوروبيين خاصة في القرن التاسع عشر ويحلل أعمالهم ويكشف حقيقة أن كثيراً مما قالوه كان مدفوعاً بتحيزاتهم إلى لغاتهم وحضارتهم وتاريخهم .

ومن تلك الآراء ما كان يراه الفيلسوف الألماني هيردر ، فعلى الـــرغم مـــن شغفه بالعبرية فهو يقول : " إنها فقيرة في التجريد لكنها غنية في تمثيل المحسوسات "[4] . ففقرها في التجريد خاصة من خصائص جمالها القديم الرائع ، كما أن بساطة أسلوبها الشعري دليل على جماله. كما كان يرى أن المنطق يحتاج إلى التجريد كما أن التجريد يحتاج إلى لغـــة قـــادرة عـــلى البيان وبذلك تكون اللغة وسيلة المنطق عند بني الإنسان .

ولمـــا كـــان العبرانيون كالأطفال يريدون كل شيء في وقت واحـــد فإن العبرية عبرت عن الشخص والعدد والزمن والعمل وغير ذلـــك باســـتعمالها صوتاً واحداً . كما أنها لا تعبر إلاّ عن زمنين هما الماضي والمستقبل وهذا ما جعل الوقت فيها يتوقف . وهذه الخصائص هي التي جعلت العبريين يبدعون شعراً صافياً لا يعكره تصرف الأفعال ودلالتها على تقطعات الزمن ، كما استخلص أن هذه اللغة الشعرية الجميـــلة لا يمكـــن لها أن توجد إلاّ في زمن قديم وجغرافية محدودة . وعلى الرغم من آرائه التي تظهر عدم انتمائه لأشكال التحيز العرقي الشـــائع في وقته إلاّ أنه كثيراً ما تصدر عنه بعض الآراء التي يمكن أن تصـــب في ذلـــك الهدف . وذلك مثل قوله عن الصينيين ، إنهم على الرغم من قدرتهم على وضع قواعد للتعامل والقوانين فإنهم انتهوا إلى أن يـــتوقفوا عند مرحلة الطفولة . فنظرة عابرة إلى لغتهم التي تحتوي عـــلى أكثر من ثمانين ألف شكل ستؤكد أن هذه اللغة قد أسهمت في إبقاء الصينيين في " أسر الطفولة "، فهم أحياء متحجرون .

ومـــن هـــؤلاء الذيـــن كان لهم أثر كبير في تصنيف اللغات والأعراق جوزف إرنست رينان الذي ترك الدراسة الدينية اللاهوتية مشغوفاً بدراسة فقه اللغة المقارن . وقد اتخذ هذا العلم أداة في دراسته للأديان والأساطير والأعراق . فالحضارة العبرية في نظره بدائية وغير قابلة للتطور . بل إن اليهود لم يسهموا في نشر العقيدة التوحيدية لأنه لا يد لهم في اكتشافها وليس لديهم القدرة في استعمالها لمحاربة الوثنية.

وكـــان يرى أن الساميين والآريين على الرغم من القربى التي كانت بينهم في القديم وعلى الرغم من إسهامهم في الحضارة الإنسانية بقدر لا يدانيه أي عرق إلاّ أن العرق الآري يتميز على العرق السامي بكـــثير مـــن الخصـــائص الذاتية التي جعلته يتفوق في أكثر الميادين . فالعائلة اللغوية الهندية الأوروبية تحوي عدداً كبيراً من اللغات وذلك مـــا يعـــبر بوضوح عن خصائص مختلفة لأقوام ينتمون إليها كالهنود والفرس والإغريق والألمان ، أما العائلة السامية فتتكون من عدد قليل من اللهجات التي ليس بينها إلاّ خلاف بسيط . وكذلك فإن اللغات الهندية الأوروبية كانت عرضة للتغير نتيجة للتنقل والحركة . أما اللغة السامية فبقيت من غير تغير لانحصارها في مكانها الأصلي . وكان يرى أن أي نظـــرية عـــن اللغة ليست إلاّ نظرية عن الدين . ولذلك فإن عقيـــدة التوحيد البسيطة القاسية لم تكن تظهر إلاّ في لغة ملائمة لها ، وتلك اللغة هي اللغة العبرية ، إذ إن هذه اللغة تتميز بنحو جاف طاغ لا يقبل التنوع . كما أن علم اللغة لم يكن ليؤسس على اللغة السامية لهذه الصفات ذاتها ، وإنما أمكن تأسيسه على اللغات الهندية الأوروبية لطواعيتها وتنوعها وغناها . وكان له رأي في الأعراق واختلافها بين البشـــر ، إذ أكـــد أن الـــتمييز بين هذه الأعراق غير ممكن الآن من الـــناحية العضـــوية لكـــنه ممكن إذا استبدلنا به اللغة وهي التي تحمل الخصائص التي تتميز بها الأعراق تاريخياً .

وكـــانت الـــلغة السامية ملائمة للرسالة التوحيدية القاسية وذلـــك لطـــبيعة هذه اللغة ، ويدلل على طبيعة اللغة السامية القاسية بظواهـــر مثل الفعل في اللغة السامية الذي لا يمكن تصريفه ليعبر عن الـــزمن والجهـــة ، فبدلاً من التصرف لا نجد فيه إلاّ عدداً محدداً من المقاطع الأحادية ، وهذه اللغة خالية من النحو ، وخالية من التصرف، وغـــير قادرة على إعادة ترتيب مكونات الجملة كما في الجملة الآرية الـــتي تســـتطيع المحافظـــة على ترتيب الأفكار معتمدة على تعريف العلاقـــات الـــنحوية . فلذلك نجد اللغة السامية غير قادرة على تخيل التعددية ، كما أن التعبير عن مظاهر الطبيعة المتعددة غير ممكن فيها . ولبســـاطة هـــذه اللغة فقد عجز الساميون عن التجريد والكلام عما وراء الطـــبيعة والعمـــل الفكري الخـــلاّق . ولا تصلح هذه اللغة لذلك إلاّ للشعر وحده وهو ما مهر فيه الساميون .

ولعدم قدرة هذه اللغة على التحدث عن التعدد في الطبيعة لم تمكـــن متكلميها من اختراع الأساطير ، أما اللغات الهندية الأوروبية فقد مكنت متكلميها من اختراع الأساطير وتعدد الرموز وذلك لأنها مكنت متكلميها من غنى التخيل والتصنيف .

ويـــأتي ماكس مولر (1823 1900) فيرى أن الدين ليس نتـــيجة لغريـــزة خاصة به ولذلك فإن عقيدة التوحيد عند الساميين ليست نتيجة لمثل هذه الغريزة . وذلك أن الغرائز لا تقبل الاختلاف بـــين الجـــنس الواحد . ولذلك فالسمك لا يطير ، والقطط لا تصيد الضفادع . وبناء على ذلك فإن العقيدة التوحيدية ليست غريزة عند اليهود وذلك أنهم عبدوا العجل في غياب موسى[5] كما أنها لو كانت غريـــزة مقصـــورة عـــلى اليهود لما اعتنقها غير الساميين كالإغريق والـــرومان . ويرى بدلاً من ذلك أن فكرة الوحدانية بدأت منذ لحظة

الخـــلق في صـــورة " وحي بدائي " إذ زود ... الإنسان منذ البداية بحدس خاص عن الرمز . وفكرة الرمز هذه لم تكن وحدانية أو وثنية ، غير أنها يمكن أن تكون واحدة منهما تبعاً لتعبير اللغة الإنسانية عنها . كمـــا أن هذه النفحة ... سميت بأسماء مختلـــفة وهو ما يمكن أن يعني أن الـــلغات الإنســـانية تشعبت منذ نفخ هذه الفكرة في الإنســـان البدائي .

وتـــبعاً لفكرته عن قدرة اللغة على تحديد شكل العقيدة فقد أخذ يعلل وجود عقيدة التوحيد عند الساميين وعقيدة الوثنية والتعدد لدى الآريين .

أما فقر اللغات السامية في مقابل اللغات الآرية فقد نظر إليه عـــلى أنه شيء حسن بدل عده كما فعل رينان شيئاً سيئاً . فلأن جـــذر الكلمة في السامية يمكن اكتشافه بسهولة فإن معنى ذلك الجذر يمكن معرفته بسهولة مماثلة . كما احتفظت كل كلمة بمعناها الأصلي ممـــا مـــنع التشـــويش . ولذلك فلم تقد الكلمات السامية إلى ترميز ظواهر الطبيعة لأن هذه الكلمات لا تطلق إلاّ على الأشياء المحسوسة المنظورة .

أمـــا الكـــلمات الآرية فمختلفة ، فيما أن الجذر فيها تكتنفه بعـــض السوابق وبعض اللواحق وبعض الزوائد فقد كان من الصعب الـــتعرف عليه ، وذلك ما أدى إلى تشويش معناه الأصلي ، كما أن الكـــلمات الآرية أكثر حرية من الكلمات السامية . وهي أكثر ألقاً ، كما أدى غناها المبهر إلى تنشيط الخيال المصور وكانت هذه الصفات هـــي أسباب التشويش والخطأ . هذا في مقابل أن الساميين لا يقعون فريســـة لتخدير الكلمات أو الأساطير التي تنتج عنها ؛ فالأسماء التي تدل على الرمز لا تخدعهم بخصائصها الغامضة .

أما اللغة عند الآريين فخطر يومي محدق . وكمثال على ذلك فإن الشمس التي هي مصدر الحياة كانت في الوقت نفسه شيئاً مخيفاً. فبسبب عدم وضوح الكلمة التي تطلق على الشمس في اللغة الآرية ، ولوجود كلمات مختلفة تطلق على كل حالة من حالاتها فقد أصبحت الكلمات بمثابة الشَّرَك . وذلك ما أدى بمصدر الضوء هذا إلى أن يكون الرمز ... وعين متحكمة ، وقوة مبهرة ... وبعد أن تطورت هذه الصفات اكتسبت الشمس في نظرهم القدرة ... وعندما اختفى جذر الكلمة نهائياً أصبحت الشمس رمزاً . وقد استخدم مولر القيدا للتدليل على ذلك .

كما أن كل كلمة في اللغات الآرية يمكن أن تتحول إلى أسطورة . وذلك ما يمكن أن يجعل أي اسم أو صفة تتطور لتصور رمزاً ، وبما أن هذه اللغات وخاصة السنسكريتية غنية في المجاز فقد جعلها ذلك مصدراً خصباً للأساطير[6].

ومن ذلك يتبين أن منهج ماكس مولر اللغوي والتاريخي قد حددته مسلماته الدينية . ومن هؤلاء العلماء الأوروبيين نرى أدولف بكتيت (1799 1875) الذي جعل شغله الشاغل نفخ الروح من جديد في الجنس الآري وذلك بالكشف عن تاريخه البدائي بواسطة اللغة وعلم اللغة . وقد وصف اللغة الآرية التي جعلت من هذا الجنس متفوقاً بقوله إنها تثير الإعجاب بغناها وقوتها وموسيقيتها وتناسق واكتمال بنيتها ؛ وهي لغة تعكس كل الصفات الموجبة التي يتحلى بها هذا الجنس من حيث العواطف الحميمة والتطلع إلى عالم مثالي . وهي لغة ملأى بالصور الخيالية والأفكار الصحيحة ، وهي تحمل بذور غناها المستقبلي ، كما أنها تمتاز بشعرها الفخم وفكرها العميق .

وقـــد أخذ في البحث عن جذور هذه اللغة مستخدماً ما أسماه عـــلم اللغة التطوري (Linguistic Paleontology) كما استنتج أن عقيـــدة الـــتوحيد ليســـت مقصـــورة على الساميين بل إن الديانة الزرادشتية الفارسية وهي التي تنتمي إلى الجنس الآلي كانت توحيدية ومعاصرة لموسى[7].

وكـــرد فعل لهذه الدراسات ظهر من ينادي بإعادة الاعتبار للجـــنس الســـامي . ومن هؤلاء إجناس يهودا جولدزيهر (1805 1921). وكان هدفه منذ البداية البرهنة على أن الجنس السامي لديه أساطير مثلما عند الآخرين . وهذا ما قاده إلى تفسير نصوص التوراة تفسيراً أسطورياً . وكان منهجه هو استخدام المناهج التي استخدمت في سبيل نفي هذه الموهبة عن الساميين وإثباتها للآريين . وكانت اللغة هـــي الوسيلة التي استخدمها لذلك فنراه ينقد آراء رينان ومولر التي تجعل من اللغة السامية مانعاً في سبيل إبداع الأساطير[8].

وهكـــذا نرى أن الكتاب المقدس كان وراء هذه الدراسات طوال تلك الفترة . فقد أحيت المقارنة بين نظام اللغات السامية ونظام الـــلغات الآريـــة السؤال القديم عن اعتناق الساميين لعقيدة التوحيد واعتـــناق الآريين عقيدة الوثنية . فعلى رغم تغير الوسيلة فإن الأسئلة التي تثار ماتزال هي هي : وكان الدافع الآخر لهذا المنحى المتحيز من الـــبحث رغبة أوروبا في التميز والظن بأن العرق الآري جنس متفوق منذ القدم على الأجناس الأخرى .

وينـــبغي الإشـــارة هنا أن هذه الآراء والتحيزات أخذت في التلاشي مع تقدم البحث اللغوي في أوروبا حتى توج ذلك بدراسات فرديـــناند دي سيســـور . فقد وجه نقداً صارماً لتلك الاعتقادات في

كتابه الذي جمعه طلابه بعد موته من المحاضرات التي كان يلقيها ، خاصة في الباب الرابع والباب الخامس . فهو يقول : " ... إن هذه الفكرة [أن اللغة خاصة معينة لمجموعة لغوية معينة] على الرغم من ملاءمتها إلاّ أنها تصبح سبباً في التضليل إذا عَدّت اللغة صفة محددة ليس للأمة فحسب ، بل صفة محددة للعرق أيضاً ، وذلك إذا عني أن تكون في مستوى لون البشرة وشكل الرأس "[9]. كما يقول : " إنه يجدر بالإشارة أن كل أمة تعتقد في تفوق لغتها وتسرع في عد من يتكلمون لغة أخرى بأنهم عاجزون عن الكلام . فالكلمة اليونانية barbaros بربري تعني " الشخص الذي يتلعثم " ومثلها الكلمة اللاتينية balbus بالمعنى نفسه : أما في الروسية فإن الألمان يوصفون بأنهم Nemtsy أي " بكم "[10].

وفي الباب الخامس يناقش قضايا اللغة والعرق والوحدة العرقية وعلم اللغة التطوري واللغة والعقل الجمعي والأسر اللغوية ويرى أن معظم الأفكار التي سادت عن هذه القضايا ليس لها ما يؤيدها . وكان من نتائج هذا التوجه الجديد أن أوقفت مجلة الجمعية اللغوية الفرنسية نشر أي بحث يتعلق بهذه القضايا خاصة ما يتعلق بأصل اللغة . وتوجه البحث بدلاً عن ذلك إلى الدراسة الموضوعية للغة بعيداً عن التوجهات العرقية .

نظرية سابيرووورف :

ولا يمكن الكلام عن التحيز اللغوي في الفكر الغربي من غير مناقشة النظرية التي افترضها اللساني والأنثروبولوجي الأمريكي الشهير إدوارد سابير (1844 1939) وتلميذه بنجامين لي

وورف (1797 1941). وكان نشاط سابير يتركز على دراسة لغات الهنود الحمر في أمريكا ؛ ومن خلال مقارنة أنظمة هذه اللغات الأوروبية توصل إلى أن هناك فروقاً جذرية في كيفية تصنيف هذه اللغات المختلفة للأشياء في الكون ، ولذلك فإن المتكلم لأي لغة يقع تحت رحمة تلك اللغة ، فلا يرى الكون إلا كما تفصله هي له . وكذلك أبحاث وورف ؛ فقد أخذت في التوسع في مناقشة هذه القضية حتى نسبت هذه الفرضية إليهما .

وتقوم هذه الفرضية على ركنين : (1) الحتمية اللغوية Linguistic determinist وتعني أن اللغة تحكم الفكر ، و(2) النسبية اللغوية Linguistic relativity وتعني أنه لا حد للإختلافات البنيوية بين اللغات .

ولم يكن هدف سابيرووورف من هذه الفرضية التحيز ضد أي لغة لكنه كان تفسيراً للفروق التي رأياها بين اللغات . غير أن هذه الفرضية استخدمت لأسباب أيديولوجية من قبل غير المختصين ، وانتقلت بسرعة إلى الأبحاث الأنثروبولوجية والإثنية والنفسية .

أما في الدراسات اللسانية فإنها لم تكتسب مكانة مشابهة ، بل وجهت الأبحاث إلى التدليل على أن هذه الفرضية لا يمكن أن تصح في صياغتها تلك . ومن ذلك ما يقوله جون ليونز : " من المحتمل أنه لا يوجد هذه الأيام أي واحد يمكن أن يدافع عن الحتمية اللغوية والنسبية اللغوية كلتيهما في شكلهما المتطرف ؛ لكنه يمكن أن يدافع عن صيغة لهما أضعف وأقل لفتاً للنظر "[11].

فمن المعروف " أن الذاكرة والإدراك كليهما يتأثران بالكلمات والتعابير الملائمة المتاحة في أي لغة . فمثلاً ، أوضحت

التجارب العلمية أن الذاكرة البصرية تميل إلى أن تكون مشوشة حتى يمكـــن أن تلائـــم التعبيرات المتاحة في اللغة ؛ كما أن ذلك ما يجعل المتكـــلمين يلاحظون (ويتذكرون) الأشياء التي رُمِّزت في لغتهم ، أي تلك الأشياء التي تقع في حدود الكلمات والتعبيرات المتاحة . وذلك مـــثل أن في اللغة الإنجليزية كلمة لتعيين أخي الأب ، لكن ليس فيها كلمة لتعيين أخي الأم . وكذلك في لغة الاستراليين الأصليين ، إذ لا توجـــد كـــلمة واحدة لتسمية " الرمل " بل كلمات متعددة لتسمية أصنافه . غير أن هذه الأسماء المتعددة لأصناف الشيء الواحد ليست مقصورة على هؤلاء ، بل يمكن أن تنتقل إلى الآخرين الذين يتكلمون لغات أخرى بشكل مباشر "[12].

ويضاف إلى ذلك أن ترميز مقولة معينة في لغة معينة ليس من الضـــروري أن تكون مطردة وعامة لدى كل أعضاء المجموعة اللغوية المعيـــنة . ويقـــول ليونز ملخصاً الرأي : " إن من الممكن القول إن أغـــلب علماء النفس واللسانيين والفلاسفة يمكن أن يقروا بأن هناك تـــأثيراً ما للغة على الذاكرة والإدراك والفكر ، لكنهم يشككون في قـــبول الصـــيغة الأقوى لفرضية سابيروورف[13]. ويوافق رأي جون ليونـــز هـــذا عدد كبير من الفلاسفة واللسانيين أمثال مايكل ديفيت وكـــيم سيترولينى[14] ورتشارد هدسون[15] وتشومسكي[16] وكيت آلان[17] وكلارك وكلارك[18] وروبرت هول[19].

التحيز ضد اللهجات :

كان السائد في الغرب كما هو في الحضارات الأخرى أن الشـــكل الصحيح للغة هو النموذج الفصيح لها . أما اللهجات فهي

في مـــنـــزلة أقل . ويلخص تشامبرز وتردجل هذه النظرة كما يلي : إن اللهجات في الإستعمال اليومي تعني " شكلاً من أشكال اللغة أقل مستوى من اللغة النموذجية ، وهي أقل منـــزلة ، وشكل وضيع من أشـــكال الـــلغة ، وتقترن دائماً بالفلاحين والطبقة العاملة ، أو بعض الجماعات الوضيعة . كما أنها تطلق على بعض النوعيات اللغوية التي تســـتعمل في أجـــزاء معزولة من العالم التي ليس لها شكل مكتوب . وينظر إلى اللهجات دائماً على أنها خروج عن اللغة النموذجية وفساد أصلها "[20].

وقد أثبت البحث اللساني في الغرب أنه لا مجال للمفاضلة بين أشـــكال اللغة . فاللغة النموذجية واللهجات كلتاهما تتميزان بوجود أنظمـــة لغويـــة مطردة تحكمهما . أما تفضيل اللغة النموذجية فسببه ارتـــباطها بعوامـــل أخـــرى غير لغوية . كالتاريخ والإنتماء القومي والـــثقافي . وقـــد أوضحت الدراسات اللسانية أن اللغة النموذجية نفســـها في لغات كثيرة كانت في فترة ما شكلاً متكلماً . أي لهجة . ونظـــراً لمصـــادفة تاريخيـــة محضة أصبحت تعد في منـــزلة أرقى من اللهجـــات الأخرى بعد أن تتخذ لغـــة للإدارة والثقـــافة[21]. وهذه الأفكـــار تـــتكرر في كـــل كتب علم اللسانيات الاجتماعية وعلم اللهجات ، ومقدمات اللسانيات .

وهكـــذا نـــرى الفكر الغربي يتخلص كلياً من أنواع التحيز المتعـــلقة باللغة كلها ، ويقترب من دراسة اللغة بموضوعية وحيادية . بل إننا نجد النظرية اللسانية التي تأسست في الغرب أساساً تسعى إلى إثـــبات أن ما نراه من خلاف ظاهري بين اللغات واللهجات لا يدل عـــلى اختلاف حقيقي بينها . فالبحث اللساني المعاصر كله موجه نحو الـــبرهنة على أن اللغات كلها يحكمها عدد قليل من المبادىء العامة .

وأن أكثر الاحتمالات أن نجد القوانين اللغوية في لغة ما مشابهة للقوانين التي نجدها في اللغات الأخرى . فلا وجه لتفضيل لغة على لغة أو لهجة على لهجة بالنظر إلى تركيبها .

التحيز اللغوي عند العرب :

ليس العرب بدعاً بين الأمم في هذا الشأن . فقد ظهر التحيز اللغوي عندهم في كافة أطوار تاريخهم الثقافي . وسوف أناقش هنا مظاهر هذا التحيز والكيفية التي ورد بها والأسباب التي كانت دافعة له . ويمكن أن يعالج هذا الموضوع في التراث العربي القديم على حدة ومن ثم في الدراسات العربية المعاصرة .

مظاهر التحيز اللغوي :

يمكن أن يتخذ التحيز اللغوي عند العرب المظاهر الآتية :

1 أن اللغة العربية أول اللغات نشأة .

2 اللغة العربية أفضل اللغات وأكملها وهي لغة أهل الجنة.

3 فصاحة قريش .

4 نشأة النحو .

اللغة العربية أول اللغات نشأة :

كانت نشأة اللغة عند الإنسان من القضايا الكبرى التي ناقشها اللغويون العرب ، وكانت هذه القضية تأتي في إطار تفسير

قولـــه تعالى : " وعلّم آدم الأسماء كلها "[22]. فقد اختلف المفسرون واللغويون في أصل اللغة : أهي إلهام أم اصطلاح . وكان أكثر النقاش يوحـــي بـــأنهم يتكلمون عن اللغة العربية وحسب ، ولو أنه ورد في بعض الأقوال الكلام عن اللغة الإنسانية بعامة .

ويعنينا هنا أن نرى كيف نظر إلى العربية في إطار هذه المسألة. وقـــد لخـــص الســـيوطي الأقـــوال والآراء الـــتي قال بها اللغويون والمفسرون. ومن ذلك ما يقوله ابن جني : " وعلى أنه قد فسّر هذا [أي وعلّم آدم الأسماء كلها] بأن قيل : إنه تعالى علّم آدم أسماء جميع المخـــلوقات بجميـــع اللغات : العربية والفارسية والسريانية والعبرانية والـــرومية وغير ذلك من سائر اللغات ؛ فكان آدم وولده يتكلمون بهـــا. ثم إن ولده تفرقوا في الدنيا ، وعلق كل واحد منهم بلغـــة من تـــلك الـــلغـــات ، فغلـــبت عليه ، واضمحل عنه ما سواها ؛ لبعد عهدهـــم بها "[23]. كما أنه يورد احتمالات أخرى كالمواضعة وتقليد أصـــوات الطبيعة . ويبدو أنه يجيز أن تبدأ المواضعة بأي لغة ، ثم يولد مـــنها اللغات الأخرى[24]. ومع هذا يعود إلى عد اللغة العربية اللغة الأولى وأنهـــا وحـــي من الله ، فيقول : " واعلم فيما بعد ، أنني على تقادم العهد ، دائم التنقير والبحث عن هذا الموضع ، فأجد الدواعي والخوالج قوية التجاذب لي ، مختلفة جهات التغول على فكري وذلك أنـــني إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة ، الكريمة اللطيفة ، وجدت فيهـــا مـــن الحكمة والدقة ، والإرهاف والرقة ، ما يملك علي جانب الفكر ، حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر . فمن ذلك ما نبه عليه أصـــحابنا رحمهـــم الله ومنه ما حذوته على أمثلتهم ، فعرفت بتتابعه وانقياده ، وبعد مراميه وآماده ، صحة ما وفقوا لتقديمه منه . ولطف مـــا أســـعدوا به ، وفَرق لهم عنه . وانضاف إلى ذلك وارد الأخبار

المــأثورة بأنهــا من عند الله عز وجل ؛ فقوي في نفسي اعتقاد كونها توفيقاً من الله سبحانه ، وأنها وحي "[25].

ثم يعــود مــرة أخرى ليعبر عن حيرته بين الاعتقاد بأفضلية العربية وأوّليتَها واحتمال وجود لغة قبلها تماثلها في مزاياها .وبعد أن يــوازن بين هذين الرأيين لا يجد أحدهما راجحاً بالآخر ، فيتوقف عن الجــزم بأحدهمــا ؛ ويعلقه إلى أن يعثر بمرجح لأحدهما على الآخر ، فيقول : " وإن خطر خاطر فيما بعد ، يعلق الكف بإحدى الجهتين، ويكفها عن صاحبتها ، قلنا به ، وبالله التوفيق "[26].

ويشير هذا التردد والحيرة إلى قوة التحيز إلى اللغة العربية مما يرغم علماً مثل ابن جني على الخضوع له .

ويذكر السيوطي أن الذين قالوا بالتوقيف " اختلفوا في لغة العرب ، فمنهم من قال : هي أول اللغات ، وكل لغة سواها حدثت بعدهــا إما توقيفاً أو اصطلاحاً ؛ واستدلوا بأن القرآن كلام الله وهو عربي ، وهو دليل على أن لغة العرب أسبق اللغات وجوداً "[27]. كما يــورد قولاً لابن عباس يقول فيه إن آدم عليه السلام " كان لغته في الجنة العربية ، فلما عصى سلبه الله العربية فتكلم بالسريانية فلما تاب رد الله عــليه العــربية "[28] كما يورد قول عبدالملك بن حبيب "أن اللســان الأول الــذي نزل به آدم من الجنة كان عربياً ، إلى أن بعد العهــد وطال ، حرّف وصار سريانياً وهو كان لسان جميع من في ســفينة نــوح ، إلاّ رجلاً واحداً يقال له جرهم ، فكان لسانه لسانَ العربي الأول "[29].

ويــورد كذلــك أحاديث ترفع إلى رسول الله صلى الله عليه وســلم أنــه قال : " أول من فَتق لسانه بالعربية المبينة إسماعيل عليه

السلام ، وهو ابن أربع عشرة سنة "[30]. بل إنه يورد كذلك حديثاً مفاده أن سر فصاحته صلى الله عليه وسلم هو إيحاء الله إليه لغة إسماعيل عليه السلام بعد أن درست[31].

ومن الملاحظ أن الآثار الأخيرة تنقض الأقوال الأولى وهذه الأخيرة أحاديث ضعيفة[32].

ومع ذلك فإن هذه الآثار والأحاديث الضعيفة يستشهد بها على أولية اللغة العربية . ومن ذلك ما يورده الجاحظ في البيان والتبيين في باب " القول في إنطاق الله عز وجل إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام ، بالعربية المبينة على غير التلقين والتمرين ، وعلى غير التدريب والتدريج ، وكيف صار عربياً أعجمي الأبوين "[33]. ثم يورد الأخبار التي ذكرت هنا .

وهذه الآراء والأقوال مشابهة لما عند الأمم الأخرى من حيث النظر إلى اللغة المعينة أنها أقدم اللغات وأولها . ويعني هذا إضفاء الهيبة عليها . وعلى الرغم من عدم صحتها فإننا نجدها شائعة في كتب اللغة والأدب والمعاجم والتاريخ .

2 اللغة العربية أفضل اللغات وأكملها وهي لغة أهل الجنة :

تحوي كتب اللغة والأدب والمعاجم نصوصاً كثيرة بعضها في صيغة أحاديث يؤخذ منها أن اللغة العربية لغة أهل الجنة وأنها أفضل اللغات وأكملها . ومن تلك الأحاديث ما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أحبوا العرب لثلاث : لأني عربي والقرآن

عربي ، وكلام أهل الجنة عربي ". وهو حديث موضوع[34]. وكذلك الحديث الآخر الذي نصه :" أنا عربي والقرآن عربي ، ولسان أهل الجنة عربي "[35]. ويعلق الألباني على هذا الحديث قائلاً : " ومما يدل على بطلان نسبة هذا الحديث إليه صلى الله عليه وسلم أن فيه افتخاره بعروبته ، وهذا شيء غريب في الشرع الإسلامي لا يلتئم مع قوله تعالى : " إن أكرمكم عند الله أتقاكم " وقوله صلى الله عليه وسلم : " لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى "[36].

ومع ذلك فإن مثل هذه الأحاديث تذكر من غير ذكر لدرجة صحتها أو ذكر وضعها إن كانت موضوعة . ومن ذلك ما نجده في مقدمة ابن منظور للسان العرب[37]، وفي مقدمة تاج العروس للزبيدي[38]، وفي كتاب إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري[39]، وغيرها كثير .

ومما يشير إلى شيوع هذه الاعتقادات أننا نجد فحواها في كثير من مقدمات الكتب اللغوية والتفاسير والمعاجم والكتب الفقهية. ومن ذلك ما يقوله ابن منظور في مقدمة قاموسه : " وشرف هذا اللسان العربي بالبيان على كل لسان ، وكفاه شرفاً أنه به نزل القرآن وأنه لغة أهل الجنان "[40]، كما يقول : " ويصل النفع به (أي بقاموسه) بتناقل العلماء له في الدنيا ، وبنطق أهل الجنة به في الآخرة "[41].

ويقول ابن سيده في المحكم : " هذه اللسان الفصيحة ، الزائدة الحسن ، على ما أوتيته سائر الأمم من اللسن "[42]. ويقول ابن جني في مقدمة كتابه المحتسب : " وشرحت صدورنا لمعرفته من لطائف مودعات لغة نبيك ، التي فضلتها على سائر اللغات "[43] وذلك بالإضافة إلى نصوص وردت عنده في كتاب الخصائص ومنها

النص الذي أشرنا إليه فيما مضى ، ويقول الباقلاني :" ثم أوضح ذلك بـــأن قال (بلسان عربي مبين) فلولا كونه بهذا اللسان حجة لم يعقب كلامه الأول به "[44]؛ كما يقول : " ويمكن بيان ذلك بأنا لا نجد في القـــدر الذي نعرفه من الألسنة للشيء الواحد ، من الأسماء ما نعرف من اللغة ، وكذلك نعرف فيها الكلمة الواحدة تتناول المعاني الكثيرة على ما تتناوله العربية ، وكذلك التصرف في الاستعارات والإشارات ووجوه الاستعمالات البديعة "[45]، ويقول : " العربية أشدها تمكناً وأشـــرفها تصرفاً وأعدلها ، ولذلك جعلت حلية لنظم القرآن ، وعلق بها الإعجاز ، وصار دلالة في النبوة "[46].

ويقـــول الإمـــام الشافعي : " ولسان العرب أوسع الألسنة مذهباً ، وأكثرها ألفاظاً ، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي "[47] ويعـــلق ابـــن فـــارس قائلاً : " وهذا كلام حري أن يكون صحيحاً "[48] كما يقول الشافعي : " وأولى الناس بالفضل في اللسان مـــن لسانه لسان النبي ، ولا يجوز والله أعلم أن يكون أهل لسانه أتـــباعاً لأهـــل لسان غير لسانه في حرف واحد بل كل لســـان تبع للسانه "[49].

ويحـــتوي البيان والتبيين نصوصاً تفضل فيها العرب ولغتهم على اللغات الأخرى ؛ ومن ذلك قوله : " ونحن أبقاك الله إذا ادعينا لـــلعرب الفضـــل على الأمم كلها في أصناف البلاغة ، من القصيد والأرجـــاز ، ومـــن المنثور والأسجاع ، ومن المزدوج وما لا يزدوج فمعنا على أن ذلك لهم شاهد من صدق الديباجة الكريمة والرونق العجيـــب والسبك والنحت الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهـــم في الـــبيـــان أن يقول مثل ذلك ، إلا في اليســـير والشيء

القليل "[50]، ويعلق عبدالقاهر الجرجاني على ذلك بقوله: " والأمر في ذلك أظهر من أن يخفى أو أن ينكره إلاّ جاهل أو معاند"[51]. كما يقول الجرجاني : " ومعلوم أن سبيل الكلام سبيل ما يدخله التفاضل وأن للتفاضل فيه غايات ينأى بعضها عن بعض ومنازل يعلو بعضها بعضاً، وأن علم ذلك يخص أهله ، وأن الأصل فيه والقدوة العرب ، ومن عداهم تبع لهم ، وقاصر فيه عنهم "[52]، ويطنب أبو حيان التوحيدي في وصف لغة العرب فيقول : " وقد سمعنا لغات كثيرة وإن لم نستوعبها من جميع الأمم ، كلغة أصحابنا العجم والروم والهند والترك وخوارزم وصقلاب وأندلس والزنج ، فما وجدنا لشيء من هذه نصوع العربية ، أعني الفرج التي في كلماتها ، والفضاء الذي نجده بين حروفها والمسافة التي بين مخارجها ، والمعادلة التي نتذوقها في أمثلتها ، والمساواة التي لا تجحد في أبنيتها ، وإذا شئت أن تعرف حقيقة هذا القول ، وصحة هذا الحكم ، فالحظ عرض اللغات الذي هو بين أشدها تلابساً وتداخلاً ، وترادفاً وتعاضلاً وتعسراً وتعوصاً ، وإلى ما بعدها مما هو أسلس حروفاً ، وأرق لفظاً ، وأخف اسماً ، وألطف وزناً ، وأحضر عياناً ، وأحلى مخرجاً وأجلى منهجاً ، وأعلى مدرجاً ، وأعدل عدلاً ، وأوضح فصلاً وأصح وصلاً ، إلى أن تنزل إلى لغة بعد لغة ، ثم تنتهي إلى العربية ، فإنك تحكم بهذا المبدأ الذي أشرنا إليه في العوائص والأغماض ، سرى قليلاً قليلاً حتى وقف على العربية في الإفصاح والإيماض "[53].

ويقول أبو بكر الزبيدي : " جعل اللغة العربية أفصحها لساناً ، وأوضحها بياناً ، وأوسعها افتناناً ، وأعذبها مخارج ، وأقومها مناهج ، وأصحها مقاطع ، وألطفها مواقع . واختارها من بين اللغات

لأنـــبيائه ، وصفوة أوليائه ، عند حلولهم دار المقامة ، ومحل الكرامة ، فـــبها وإياهـــا من ربهم يستمعون "[54]، ويقول الجاحظ : " ولفضل الفصاحة والبيان بعثَ الله تعالى أفضل أنبيائه وأكرم رسله من العرب، وجعل لسانه عربياً ، وأنزل عليه قرآناً عربياً "[55]، ويقول المعافري السرقســـطي : " وأن أشرف ما عني به الطالب بعد كتاب الله عز وجـــل لغـــات العرب وآدابها ، وطرائف حكمها ، لأن الله تبارك وتعالى اختارها من بين اللغات لخير عترة وأشرف أمة ، ثم جعلها لغة أهـــل دار المقامة في جواره ومحل كرامته . فهي أفصح اللغات لساناً وأوضـــحها بيانـــاً ، وأقومها مناهج ، وأثقفها أبنية ، وأحسنها بحسن الاختصار تألقاً . وأكثرها بقياس أفعالها تصرفاً "[56].

ويقـــول الفارابي : " وأما اللسان فهو كلام جيران الله في دار الخـــلد ، وهو المنـــزه من بين الألسنة من كل نقيصة ، والمعلى على كل خسيسة ، والمهذب مما يهجن أو يستشنع ، فبنى مباني بأن بها جميع اللغات ، من إعراب أوحده الله له ، وتأليف بين حركة وسكون حلاه به "[57].

فهـــذه الأقـــوال جميعها قالها لغويون ونحاة وبلاغيون وأدباء وفقهـــاء في مختلف العصور ويمكن أن يضاف إليها الكثير ومنهم من غيرهم . والذي يشكك في صحتها أسباب كثيرة منها :

1 أن الأحاديث التي كانت سبباً في شيوع هذه الاعتقادات ضعيفة أو موضوعة .

2 أن هذه الأقوال توجد في كل حضارة ، إذ يعتقد المتكلمون للغة هذه الحضارة أن لغتهم هي الأفضل .

3 أن تفضيل اللغة العربية لم يكن ناتجاً عن مقارنتها بلغات أخرى وذلك على الرغم من زعم أبي حيان التوحيدي . فأكثر اللغويون والنحاة والفقهاء لا يعرفون إلاّ اللغة العربية . أما الذين يعرفون لغـــة أخـــرى مثل الفارسية فقد كانوا وراء كثير من التحيز ضد اللغة العربية كما سنعرف فيما بعد .

4 أنه كلما درست هذه الاعتقادات وجد أنه لا دليل عليها ، وقد ســبق أن عرضــنا لذلــك فــيما يخــص الدراسات الأوروبية والدراسات اللسانية .

وكما رأينا فإن نزول القرآن الكريم باللغة العربية كان يتخذ حجــة على فضل اللغة العربية وتميزها عن غيرها . غير أننا إذا رجعنا إلى كـــتب التفســير فــإن بعــض المفسرين لا يفسرون الآيات التي يستشهد بها على فضل العربية بكيفية توحي بتفضيلها . ومن ذلك ما يقوــله الإمام الطبري في مقدمة تفسيره عند الكلام على قوله تعالى : "وما أرسنا من رسول إلاّ بلسان قومه ". إذ يقول : " فقد تبين إذاً بمــا عليه دللنا من الدلالة أن كل رسول لله ، جلّ ثناؤه ، أرسله إلى قوم ، فإنما أرسله بلسان من أرسله إليه ، وكل كتاب أنزله على نبي، ورســالة أرســلها إلى أمة فإنما أنزله بلسان من أنزله أو أرسله إليه ، واتضــح بما قلنا ووصفنا أن كتاب الله ، الذي أنزله إلى نبينا محمد ، صلى الله عليه وسلم ، بلسان محمد صلى الله عليه وسلم "[58].

فليس في هذا التفسير إلاّ توضيح لســنة الله في إرســال كل رسول بلسان من أرسل إليهم . وكذلك تفسير أبي حيان لهذه الآية ؛ إذ يورد قولاً للضحاك يقول فيه " والضمير في (قومه) عائد على محمد صلى الله عليه وسلم ، قال : والكتب كلها نزلت بالعربية ، ثم أداها

كـــل نـــبي بلغة قومه ". لكن أبا حيان يورد رد الزمخشري على هذا القـــول وهو : " قال الزمخشري : وليس بصحيح لأن قوله : " ليبين لهـــم " ضمير القوم وهم العرب ، فيؤدي إلى أن الله أنزل التوراة من السماء بالعربية ليبين للعرب ، وهذا معنى فاسد ". ويورد كذلك قولاً للكلبي أن " جميع الكتب تأدت إلى جبريل بالعربية وأمره تعالى أن يأتي رســـول كـــل قـــومٍ بلغتهم ، لكنه عندما يفسر قوله تعالى : (بآياتنا) يقـــول: " وقيـــل يجـــوز أن يراد بها آيات التوراة . والتقدير : كما أرسلناك يا محمد بالقرآن بلسان عربي وهو آياتنا كذلك أرسلنا موسى بالتوراة بلسان قومه "[59].

لقـــد وصف الله القرآن الكريم بأنه مبين في اثني عشر موضعاً ووصـــفه بأنه قرآن عربي في ستة مواضع ، وأنه بلسان عربي في ثلاثة مواضـــع وأنه حكم عربي في موضع واحد[60]. ولم يفسر الطبري أي واحـــد من هذه المواضع بأنه تفضيل للغة التي أنزل بها . أما " مبين " فقـــد فسرها بقوله ، عند تفسير قوله تعالى " الَرَ تلك آيات الكتاب المـــبين "[61]: والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال : معناه : هـــذه آيات الكتاب المبين لمن تلاه وتدبر ما فيه ، من حلاله وحرامه ومنهيه وسائر ما حواه من صنوف معانيه ، لأن الله جل ثناؤه أخبر أنه مبين ، ولم يخص إبانته عن بعض ما فيه دون جميعه ، إذ كان جميعه مبيناً عمـــا فيـــه "[62]. ويكـــرر هذا التفسير في كل المواضع التي يوصف القـــرآن بأنه مبين . كما يفسر وصف القرآن بأنه عربي بقوله ، عند تفســـيره لقوله تعالى : " إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون "[63]: "يقـــول تعـــالى ذكره : إنا أنزلنا هذا الكتاب المبين قرآناً عربياً على العـــرب ، لأن لسانهم وكلامهم عربي ، فأنزلنا هذا الكتاب بلسانهم ،

ليعقلوه ، ويفقهوا منه "[64] كما يفسر قوله تعالى : " بلسان عربي مبين"[65] تفسيراً لا يخرج عن هذا التفسير ، فيقول : " وإنما ذكر تعالى ذكره أنه أنزل هذا القرآن بلسان عربي مبين في هذا الموضع ، إعلاماً منه مشركي قريش أنه أنزله كذلك، لئلا يقولوا إنه نزل بغير لساننا ، فنحن إنما نعرض عنه ولا نسمعه ، لأنا لا نفهمه ، وإنما هذا تقريع لهم "[66] وكذلك تفسيره للآيات الأخرى التي تشبه هذه الآية . كما أن تفسير أبي حيان لا يخرج عن تفسير الطبري في فهم هذه الآيات .

فإنزال القرآن الكريم بالعربية إذن يجب ألاّ يفهم منه أنه تفضيل لهذه اللغة ، والإحتجاج بالآيات السابقة على تفضيلها مردود بفهم بعض المفسرين لها .

لكننا نجد بعض المفسرين ، خاصة المتأخرين منهم من يفسر هذه الآيات بأنه تفضيل للغة العربية . ومن ذلك ما يقوله القرطبي (ت 681هـ) في تفسير قوله تعالى : " وهذا لسان عربي مبين "[67] " أي أفصح ما يكون من العربية "[68]. ويفسر قوله تعالى : " إنا جعلناه قرآناً عربياً "[69] بقوله : " عربياً " أي أنزلناه بلسان العرب ؛ لأن كل نبي أنزل كتابه بلسان قومه ؛ قاله سفيان الثوري وغيره ، قال مقاتل : لأن لسان أهل السماء عربي "[70].

كما يقول ابن كثير (ت 774هـ) في تفسيره قوله تعالى (إنا أنزلناه قرآناً عربياً)[71]: " وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها ، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوّم بالنفوس ، فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات على أشرف الرسل "[72].

أما سيد قطب فيقول في تفسير قوله تعالى : (إنا جعلناه قرآناً عـــربياً)[73]: " كما اختير لها (الرسالة الإسلامية) اللسان الذي يصـــلح لحمـــلها إلى أقطـــار الأرض . ولو كانت لغة ميتة أو ناقصة الـــتكوين الطبيعي ما صلحت لحمل هذه الدعوة أولاً ، وما صلحت بـــالذات لنقـــلها إلى خـــارج الجزيرة العربية ثانياً . وقد كانت اللغة كأصحابها ، أصلح ما تكون لهذا الحدث العظيم "[74].

غير أن هذا الفهم واحد من الممكنات وليس لزاماً أن يكون هـــو الفهم الوحيد لهذه الآيات . ولابد أن نلاحظ أن القرآن الكريم نفسه لا يصف حال العرب كما يصفهم سيد قطب وذلك أننا نجد في القـــرآن الكـــريم آيات تدل على وضعهم السيء الذي كانوا عليه كقوله تعالى : (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عـــليكم إذ كنـــتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنـــتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياتـــه لعلكم تهتدون)[75]. كما امتن الله على العرب بأن رفع من غير مترلـــتهم بالقرآن (وأنه لذكر لك ولقومك)[76]. وهناك من الآثار ما يبين حال العرب السيء أيضاً مثل كلام جعفر بن أبي طالب عند ملك الحبشـــة . وخلاصـــة القول فإن ما يقال من أن اللغة العربية أصلح اللغات لحمل القرآن الكريم أو أن العرب أصلح الناس لحمل الإسلام قـــول لا دليل عليه بل إن الله عز وجل يقول : (الله أعلم حيث يجعل رسالته)[77] فهو وحده الذي يعلم لم اختار إرسال محمد صلى الله عليه وسلم من العرب .

3 – فصاحة قريش :

حظيت قريش بثناء على لغتها لم تنله غيرها من قبائل العرب

الأخرى . ويأتي هذا الثناء أحياناً في صيغة أحاديث تنسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم تتحدث عن فصاحته أو أحاديث أخرى يستدل بها على فصاحة قريش التي ينتسب إليها .

ومن أشهر الأحاديث ما يروى أنه صلى الله عليه وسلم قال: " أنا أفصح العرب بيد أني من قريش وربيت في بني سعد ". وهذا الحديث موضوع[78] وكذلك لفظه الذي أورده الألباني : " أنا أعربكم أنا من قريش ، ولساني لسان بني سعد بن بكر " فقد قال عنه إنه موضوع[79]، وعلى الرغم من وضع هذا الحديث فإنه يستشهد به ويحتج على تميز قريش عن غيرها من العرب بالفصاحة ويرد في كثير من كتب الأدب واللغة والتاريخ[80].

وتفسر بعض المصادر الآية الكريمة : (وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه) أن ذلك يعني بلسان قريش . فقد أورد ابن الأنباري خبراً هو : " قال أبو عبيدة ، وحدثنا مسمع بن عبدالملك عن محمد بن علي بن الحسين ، عن آبائه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " كان أول من فتق لسانه بالعربية المبينة إسماعيل عليه الصلاة والسلام وهو ابن أربع عشرة سنة ". فقال يونس [بن حبيب] : صدقت يا أبا سيار : هكذا حدثني جزء . فإسماعيل أول من تكلم بالعربية المبينة ثم صارت إلى قريش خاصة . وتصديق ذلك في القرآن: (وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه ليبين لهم)، إلاّ أن العربية المبينة لهم بلسان قريش قوم النبي صلى الله عليه وسلم "[81] وقد رأينا من قبل أن هذا التفسير يخالف ما عليه بعض أهل التفسير .

ويرد في المصادر العربية نصوص كثيرة تمتدح فيها لغة قريش. ومن ذلك ما يرد في المزهر مروياً عن ابن فارس في كتابه فقه اللغة

العـــربية أنه قال : " أخبرني أبو الحسن أحمد بن محمد مولى بني هاشم بقـــزوين ، قال : أجمع علماؤنا بكلام العرب ، والرواة لأشعارهم ، والعـــلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم أن قريشاً أفصح العرب ألســـنة ، وأصفاهم لغة ، وذلك أن الله تعالى اختارهم من جميع العرب ، واختار منهم محمداً صلى الله عليه وسلم ، فجعل قريشاً قطان حرمه ، وولاة بيـــته ؛ فكـــانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة لـــلحج ، ويـــتحاكمون إلى قريش ، في دارهم ، وكانت قريش ، مع فصاحتها وحسن لغاتها ، ورقة ألسنتها ، إذا أتتهم الوفود من العرب تخـــيروا مـــن كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم ، وأصفى كلامهم ، فاجـــتمع مـــا تخيروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التي طبعوا عليها : فصاروا بذلك أفصح العرب "[82].

وقـــد روى ابن فارس هذا النص عن مولى لبني هاشم وهو ما يـــثير الشك في هذا الخبر ، ثم إنه لم يذكر مَنِ العلماء الذين أجمعوا . وحتى لو أجمع هؤلاء فإن إجماعهم يخالف ما يذكره رواة اللغة الأوائل مثل أبي زيد الذي يروى عنه أنه قال : " أفصح الناس سافلة العالية ، وعاليـــة السافلة ، يعني عجز هوازن "[83] كما روى عن أبي عمرو بـــن العـــلاء قوله : " أفصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم "[84]. وورد في العين " أفصح العرب نصر قعين أو قعين نصر "[85] وقول أبي عمرو : " أفصح الشعراء ألسناً وأعربهم أهل السروات ، وهن ثلاث، وهـــي الجبال المطلة على تهامة مما يلي اليمن ، فأولها هذيل ، وهي تلي الـــرمل مـــن تهامة ؛ ثم علية السراة الوسطى وقد شركتهم ثقيف في ناحية منها ، ثم سراة الأزد ، أزد شنوءة وهم بنو الحرث بن كعب بن الحـــرث بن نصر بن الأزد "[86]، ثم إن هذا النص لم يصف لغة قريش

إلاّ بصفات عامة لا نعرف ما تعني كالرقة والعذوبة والصفاء . ويلاحظ هنا شيء من التناقض فإذا كانت لغة قريش بهذا المستوى من الفصاحة والحسن ، أليس من المنتظر أن تستغني عن ما عداها ؛ أما إذا استعارت من غيرها وكان من نتيجة ذلك إضافة شيء لم يكن موجوداً فيها فإن وصفها قبل هذه الاستعارة بالكمال ضرب من المبالغة . والزعم بأن قريشاً أو غيرها يمكن أن تختار عن وعي من اللغات الأخرى زعم يحتاج إلى برهان أقوى مما قدم .

كما يقتضي هذا الزعم أن قريشاً كانت تقوم بتحليل اللهجات الأخرى وتوازن بين خصائصها وتقومها ثم تختار ما وافق موازين معينة لديها ، وهذا يحتاج إلى عمل ضخم منظم لا يمكن القيام به بسهولة حتى في العصر الحاضر .

ومثل هذا الخبر ما قاله الفارابي : " كانت قريش أجود العرب انتقاداً للأفصح من الألفاظ ، وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعاً ، وأبينها إبانة عما في النفس "[87]. وينطبق ما قيل عن نص ابن فارس على هذا النص إذ أن لغة قريش وصفت بصفات لا يعرف ما تدل عليه . وعلى الرغم من ثناء الفارابي فإنه في النص نفسه يقول : " والذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدى ، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم قيس وتميم وأسد؛ فإن هؤلاء هم الذين عنهم أخذ أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف "[88].

ولو كانت لغة قريش على الصورة التي رسمها لها في أول النص فإنه من غير المستساغ الأخذ عن قبائل العرب الأخرى ، بله الاقتصار عليها في أكثر ما أخذ ومعظمه ، والاتكال عليهم في الخصائص الرئيسية التي يتكون منها النظام اللغوي .

ويعلل الفارابي في النص نفسه عدم الأخذ عن حاضرة الحجاز ومنهم قريش بأن " الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم "[89]. فإذا كانت لغة قريش لم ينقلها جامعو اللغة فكيف يصح أن توصف وتقارن بغيرها ؟

ومن النصوص المشهورة التي يكثر إيرادها في المصادر العربية عن لغة قريش ذلك الخبر الذي رواه المبرد وغيره عن الأصمعي ، وهو: " وحدثني من لا أحصي من أصحابنا عن الأصمعي عن شعبة عن قتادة قال : قال معاوية يوماً : من أفصح الناس ؟ فقام رجل من السماط فقال : قوم تباعدوا عن فراتية العراق ، وتيامنوا عن كشكشة تميم وتياسروا عن كسكسة بكر ، ليس فيهم غمغمة قضاعة ولا طمطمانية حمير . فقال معاوية : من أولئك ؟ فقال : قومك يا أمير المؤمنين ! فقال معاوية : من أنت ؟ قال رجل من جرم. قال الأصمعي: وجرم من فصحاء الناس "[90] ويأتي هذا الخبر مخصصاً قريشاً باسمها كما عند الزمخشري في الفائق في غريب الحديث[91] والجاحظ في البيان والتبيين[92].

وترويه كثير من المصادر من غير ذكر لسنده . أما هنا فإن أصل الخبر يرويه قتادة بن دعامة السدوسي البصري . وهناك ملاحظات عدة على هذا النص هي :

1 أنه على الرغم مما يقوله ابن سلام عن قتادة إذ يقول : "وكان قتادة بن دعامة السدوسي من رواة الفقه ؛ عالماً بالعرب وبأنسابها، ولم يأتنا عن أحد من رواة الفقه من علم العرب أصح من شيء أتانا عن قتادة "[93]، فإن قتادة ولد سنة 61هـ أي بعد

وفـــاة معاويـــة رضي الله عنه بسنة . فروايته هذا الخبر ليســـت مباشرة .

2 وحتى لو صح الخبر فإن دلالته ليست قاطعة ، إذ أنه لا غرابة أن يكـــون في مجلس الخليفة مثل هذا الكلام الذي يقصد به التزلف إليه .

3 أنه وردت روايات أخرى لهذا الخبر يقول فيها الأعرابي: " قومي " بـــدلاً مـــن " قومـــك "[94]، وربما أصلحت إلى " قومك " في الكـــتب الأخـــرى اعتماداً على ما ورد في بعض نسخ مخطوطة الكامل .

4 أنه ورد في البيان والتبيين أن سليمان بن عبدالملك جمع بين قتادة والزهـــري " فغلب قتـــادة الزهري ، فقيل لسليمان في ذلك ، فقـــال " إنـــه فقيـــه مليح ، فقال القحذمي : لا ، لكنه تعصب للقرشية ، ولانقطاعه كان إليهم ، ولروايته فضائلهم "[95].

5 أنـــنا لا ندري ما المؤهلات التي أهلت هذا الأعرابي المجهول اسمه لكي يصدر هذا الحكم .

6 أنه تروى قصة مشـــابهة حدثت في مجلـــس عبدالملك بن مروان ينســـب أعـــرابي فيهـــا الفصـــاحة إلى قومه (عـــذرة) فيصدقه الخليـــفة[96].

7 ولقـــد رأيـــنا من قبل أن أحاديث وضعت في هذا الشأن ؛ أفلا يمكن أن يكون هذا الخبر من قبيل تلك الأحاديث الموضوعة ؟

أمـــا الصفات التي عدت قبيحة ولم توجد في لغة قريش فهي خصـــائص صـــوتية فقط ومن الصـــعب أن تكون وحـــدها مقياساً

للفصـــاحة. فكل لهجة لها خصائص صوتية تختلف بها عن غيرها وكل قوم يرون أن طريقة نطقهم أجمل . فلا دلالة في هذا النص على أن لغة قريش أفضل لعدم وجود هذه الصفات فيها .

وهـــناك من العلماء العرب القدماء من يعد مقياس الفصاحة هذا مقياساً خاطئاً . ومن هؤلاء عبدالقاهر الجرجاني ، إذ يقول : " ولمـــا كـــان هذا دأبهم [أي الذين يرسمون مقاييس للفصاحة] ثم رأوا الـــناس وأظهـــر شيء عندهم في معنى " الفصاحة " تقويم الإعراب ، والـــتحفظ من اللحن ، لم يشكّوا أنه ينبغي أن يعتد به في جملة المزايا الـــتي يفاضل بها بين كلام وكلام في الفصاحة ، وذهب عنهم أن ليس هو من " الفصاحة " في شيء يدخل في النطق ، ولكن من أجل لطائف تدرك بالفهم "[97].

ويشـــدد الجـــرجاني القول في نقد من يرون أن الفصاحة في اللفظ بقوله : " ولقد بلغ من قلة نظرهم أن قوماً منهم لما رأوا الكتب المصنفة في اللغة قد شاع فيها أن توصف الألفاظ المفردة بالفصاحة ، ورأوا أبـــا العباس ثعلباً قد سمى كتابه " الفصيح " مع أنه لم يذكر فيه إلاّ اللغة والألفاظ المفردة ، وكان محالاً إذا قيـــل : إن "الشمْع" بفتح المـــيم أفصح من الشمْع بإسكانه ، أن يكون ذلك من أجل المعنى ، إذ ليس تفيد الفتحة في الميم شيئاً في الذي سمي به ، وسبق إلى قلوبهم أن حكـــم الوصف بالفصاحة أينما كان وفي أي شيء كان ، أن لا يكون لـــه مـــرجع إلى المعنى البتة ، وأن يكون وصفاً للفظ في نفسه ، ومن حيـــث هو لفظ ونطق لسان ، ولم يعلموا أن المعنى في وصف الألفاظ المفـــردة بالفصاحة أنها في اللغة أثبت ، وفي استعمال الفصحاء أكثر ، أو أنها أجرى على مقاييس اللغة والقوانين التي وضعوها ، وأن الذي هـــو معنى " الفصاحة " في أصل اللغة ، هو الإبانة عن المعنى ، بدلالة

قولهم " فصيح وأعجم "، وقولهم " أفصح الأعجمي " و"فصْح اللحان"، و" أفصح الرجل بكذا " إذا صرح به ، وأنه لو كان وصفهم الكلمات المفردة بالفصاحة من أجل وصف هو لها من حيث هي ألفاظ ونطق لسان ، لوجب إذا وجدت كلمة يقال إنها كلمة فصيحة على صفة في اللفظ ؛ أن لا توجد كلمة على تلك الصفة إلاّ وجب لها أن تكون فصيحة ، وحتى يجب إذا كانت "فقهت الحديث " بالكسر أفصح منه بالفتح ، أن يكون سبيل كلّ فعل مثله في الزنة أن يكون الكسر فيه أفصح .

" ثم إن فيما أودعه ثعلب كتابه ، ما هو أفصح ، من أجل أن لم يكن فيه حرف كان فيما جعله أفصح منه ، مثل أن " وقفت " أفصح من " أوقفت " أفترى أنه حدث في " الواو " و" القاف " و"الفاء " بأن لم يكن معها الهمزة ، فضيلة وجب لها أن تكون أفصح؟ وكفى برأي هذا مؤداه تهافتاً وخطلاً "[98].

ويتكرر إيراده هذا المعنى في مواضع كثيرة في دلائل الإعجاز. ومعنى ذلك أن الجرجاني لا يرى الفصاحة نتيجة لوصف يكون في اللفظ من حيث النطق أو البناء الصرفي بل إن فصاحة اللفظ نتيجة لضمه إلى آخر في بناء نحوي مؤثر .

والقول بأن عبدالله بن مسعود قرأ " حتى حين " في سورة يوسف يمكن أن يشكك فيه لأنه لم يؤثر عنه قراءة " حتى " عتى " في أي موضع آخر من القرآن . ولم يقرأ النص المماثل الذي ورد في سورة المؤمنون الآية (25).

كما أن القول بأن عثمان رضي الله عنه أمر عند الاختلاف أن يكتب القرآن بلغة قريش ليس له ما يؤيده من رسم المصحف ،

فهـــذا الخبر يفترض أن هناك تطابقاً بين الرسم الكتابي والنطق وهذا ليـــس صحيحاً . فالكتابة ليست إلا أداة تقريبيـــة لتمثيل الصـــوت المنطوق في كل لغة .

هذا أولاً وثانياً أننا نجد في القرآن الكريم الكلمة الواحدة أو الحرف الواحد مرسوماً بطرق مختلفة ، وذلك مثل كتابة التاء المربوطة مفتوحة أو العكس ، وكتابة الألفات وكتابة الهمزات إلى آخره .

والخبر الذي روى أن عثمان أمر بسببه أن يكتب بلغة قريش ورد في ســـياق الاخـــتلاف بين زيد بن ثابت والقرشيين في التابوت أيكـــتب بالهاء أم بالتاء . وربما انصرف كلام عثمان إلى هذه الكلمة فقط .

ومن الجدير بالذكر أن كثيراً من الصفات التي يقال إن لهجة قـــريش تتصـــف بها يمكن أن توجد في كلام أناس غير قرشيين . ومن ذلـــك أنـــه يقـــال إن فك الإدغام في مضارع الفعل المضعف المجزوم خصيصة قرشية . لكننا نجد هذه الظاهرة في أمثلة كثيرة في غير كلام قـــريش ؛ ومـــن ذلـــك قـــول مورق بن قيس بن عوف بن القعقاع التميمي:

كسوت حكيماً ذا الفقار ومن يكن   شـــعاراً لـــه تَرِنن عليه أقـــاربه[99]

بـــل إن هذه الظاهرة ونظيرها ، أي عدم فك الإدغام ، يمكن أن توجدا في ما يسمى لهجة قريش . ومن ذلك ما يرد في الأغـــاني : " قـــال إســـحق في خبره : فحدثني حمزة بن عتبة اللهبي قال : أنشد عطاء بن رباح قول العرجي :

في الحج إن حجت وماذا منى   وأهلـــه إن هـــي لم تحجـــج

فقال : الخير والله بمنى وأهله حجت أم لم تحج "[100].

ويبدو هنا أن فك الإدغام سببه وزن الشعر . لكننا أحياناً نجد أن صيغتين مختلفتين لكلمة واحدة تنسب إحداهما لقريش والأخرى لغيرها تردان من غير أن تكونا بسبب الوزن . ومن ذلك قول جرير :

نبئت أن مجاشعاً قد أنكروا شَعَراً ترادف حاجبيه توأما[101]

وقوله في القصيدة نفسها :

أنبئت أنك يا بن وردة آلف لبني خُدية مقعداً ومقاما[102]

ومن الحجج التي تورد دائماً على تفوق لغة قريش أن القرآن الكريم نزل بها . وتقوم هذه الحجة على ما ورد في صحيح البخاري من أن القرآن أنزل بلغة قريش[103]. ويحتاج هذا الموضوع دراسة مستقلة به غير أنه تجدر الإشارة إلى أن ما روي عن عمر وعثمان رضي الله عنهما في ذلك إنما هو أخبار وليس أحاديث . والقول بإنزال القرآن بلغة قريش يتنافى مع الحديث المشهور المتواتر الذي رواه أربعة وعشرون صحابياً الذي معناه أن القرآن أنزل على سبعة أحرف ومن رواته عمر وعثمان وعبدالله بن مسعود[104]، وما يروى من قول عمر بن الخطاب لعبدالله بن مسعود رضي الله عنهما حين كتب إليه " اقرىء القرآن بلغة قريش فإنه نزل بها " لا يتناسب مع كون عبدالله بن مسعود مكي النشأة[105] وكان حليفاً لبني زهرة منهم . فلهجته إذن مكية وليست هذلية . ولا تتناسب كثير من الأخبار مع ما يرويه البخاري في صحيحه عن عبدالله بن مسعود وأناس من الأنصار إذ كانوا أكثر الصحابة جمعاً للقرآن[106].

ويبقى أمر آخر وهو أن مفهوم كلمة " لغة " في الإصطلاح

العـــربي القديم يجب ألا تؤخذ كي تدل على نظام متكامل من الأنظمة الصـــوتية والصـــرفية والنحوية والمعجمية ، بل إنها تستعمل في القديم لكي تحدد نطق كلمة معينة أو استعمالها أو وظيفتها النحوية عند قوم معيـــنين . وهكذا نرى أن تفضيل لغة قريش وتمييزها في الفصاحة عن العرب الآخرين يفتقر إلى الأدلة القوية .

نشأة النحو :

ومـــن المواضـــع التي يظهر فيها التحيز ، الكلام عن نشأة النحو، إذ تربط نشأته بانحلال نظام اللغة العربية نتيجة لتأثير الداخلين في الإسلام من غير العرب ، ويشتهر في المصادر العربية أن أول واضع للنحو كان أبا الأسود الدؤلي ، ثم تختلف المصادر في الذي أوحى إليه بوضـــعه . يقـــول ابـــن جني : " وعَلِمَ أنه لم يوفق لاختراعه (أي الـــنحو)، وابتداء قوانينه وأوضاعه إلاّ البر عند الله سبحانه ، الحظيظ بمـــا نوه به ، وأعلى شأنه ، أوَلايعلم أن أمير المؤمنين علياً رضي الله عـــنه هو البادئـــة ، والمنبه إليه ، والمنشئه والمرشـــد إليه، ثم تحقّق ابـــن عبـــاس رضي الله عنه واكتفال أبي الأســـود رحمه الله إياه .. "[107].

كما ترى بعض المصادر أن أمير العراق زياداً هو الذي طلب من أبي الأسود وضع النحو ، فيروي ابن الأنباري خبراً هو : "حدثني أبي قـــال : حدثنا أبو عكرمة قال : قال العتبي : كتب معاوية إلى زياد يطـــلب عبيدالله ابنه ، فلما قدم عليه كلمه فوجده يلحن ، فرده إلى زيـــاد ، وكتب إليه كتاباً يلومه فيه ، ويقول : أمثل عبيد الله يُضيّع ؟ فـــبعث زياد إلى أبي الأسود فقال له : يا أبا الأسود ، إن هذه الحمراء

قد كثرت وأفسدت من ألسن العرب فلو وضعت شيئاً يَصلح به الناس كلامهم ويعربون به كتاب الله "[108] كما يروى أيضاً أن صاحب المبادرة في وضع النحو هو أبو الأسود نفسه ، إذ جاء إلى زياد بالبصرة فقال : " إني أرى العرب قد خالطت هذه الأعاجم وتغيرت ألسنتهم أفتأذن لي أن أضع للعرب كلاماً يعرفون أو يقيمون به كلامهم ؟ قال : لا. فجاء رجل إلى زياد فقال : أصلح الله الأمير ، توفي أبانا وترك بنونا . فقال زياد توفي أبانا وترك بنونا ؟ ادعُ لي أبا الأسود . فقال ضع للناس الذي نهيتك أن تضع لهم"[109]. وقال ابن الأنباري أيضاً : " حدثني أبي قال : حدثني عمر بن شبة قال : دخل الشعبي مسجد الكوفة وعدة من الموالي يعلمون العربية ، فقال : نعم أصلحوا لسانهم فإنكم أنتم أفسدتموه "[110].

فتربط هذه الأخبار وغيرها مما يشبهها إذن بين نشأة النحو واضطراب لغة العرب بسبب أثر الأعاجم . غير أننا عندما ندرس المصادر نفسها نرى أنها تورد أخباراً أخرى تعود إلى عهد النبي صلى الله عليه وسلم وعهد الخلفاء الراشدين يَحث فيها على توقي اللحن . فيقول ابن الانباري : "وجاء عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه وتابعيه رضي الله عنهم من تفضيل إعراب القرآن والحث على تعلمه وذم اللحن وكراهيته ما وجب به على قراء القرآن أن يأخذوا أنفسهم بالاجتهاد في تعلمه "[111] ثم يورد أحاديث وآثاراً كثيرة في ذلك[112] وتدل هذه الأخبار والآثار بمجموعها أن اللحن لم يظهر بتأثير الأعاجم ، بل إن العرب أنفسهم وقبل أن يختلطوا بهم كان يظهر في أدائهم للقرآن خروج عن قوانين لغته مما أصبح يعد لحناً فيما بعد .

ولا يعقـــل أبداً أن ينحل نظام اللغة ويتغير بهذه السرعة وفي فـــترة لا تتجاوز ثلاثين سنة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم . ولا نعـــدم بعض الإشارات في المصادر العربية التي توحي بوجود لغة غـــير معربة عند العرب إلى جانب اللغة العربية الفصحى ، ومن ذلك ما يرويه ابن سلام في سياق الحديث عن أبي الأسود : " وإنما قـــال ذلـــك (يعـــني أبا الأسود) حين اضطرب كلام الناس فغلبت السليقية ، ولم تكن نحوية . فكان سراة الناس يلحنون ووجوه الناس "[113] ويفســـر صـــاحب اللسان " السليقي " من الكلام بأنه "ما لا يـــتعاهد المرء إعرابه ، وهو فصيح بليغ في السمع ، عثور في النحو ، وذلـــك حين يسترسل المتكلم على سليقته ، أي سجيته وطبيعته ، من غير تعمد إعراب ، ولا تجنب لحن ". ويدل نص ابن سلام على أن " الســـليقية " أي اللغة التي لا تعرب كانت موجودة ، إنما الذي حدث في تلك الفترة هو تغلبها وشيوعها .

إن القـــول بأن العرب قبل اختلاطهم بالعجم كانوا يتكلمون كـــلهم لغـــة معربة قول فيه كثير من المبالغة . فإضافة إلى النصوص المـــتقدمة الـــتي تـــدل على أن العرب كانوا لا يقيمون الإعراب في قـــراءاتهم لـــلقرآن أحيانـــاً نجد نصوصاً توحي بأن اللغة التي تمثلها النصوص الشعرية لم تكن لغة الخطاب اليومي . ومن النصوص المهمة في هـــذا الشـــأن ما يرويه أبو عبيدة معمر بن المُثَنَى التميمي البصري تعليقاً على بيت لكعب بن عمرو التميمي هو :

جـــانيك من يجني عليك وقد تُعدي الصحاحَ مبارِكَ الجربُ

قـــال : " أنشدني داؤود أحد بني ذؤيب (بن كعب) وغيره : (الصـــحاحَ مـــبارِكُ الجربِ) فرفعوا (مبارِكَ) وجروا (الجرب) وذلك

إقواء . وقال أبو الخطاب (الأخفش الأكبر ، أستاذ سيبويه) : إن عامة أهـــل البدو ليست تفهم ما يريد الشاعر ولا يحسنون التفسير ، وإنما أتى إقواء هذا من قلة فهم الذين رووه . وإنما عنى الشاعر (وقد يُعدي الأجـــرب الصـــحيحَ مبركَا ، فلما وجدوه مقدماً ومؤخراً لم يحسنوا تلخيصـــه ووجدوا (مبارك) لا ينصرف فأظلم المعنى عليهم وإنما أراد (وقد تعدي الصباح مباركُ الجربِ) . (كذا)[114].

فيـــدل هذا النص على أن الأخفش الذي شافه العرب كما يقال لا يرى أن عامة البدو يحسنون اللغة الفصحى . وإذا كانوا لا يحســـنونها فإنما يدل على أن إحسانها مقصور على فئات خاصة منهم هم الشعراء والرواة ، أما عامتهم فلغتهم تختلف عن هذه اللغة .

كمـــا أن بعض المصادر الأخرى تؤكد تفاوت العرب في فهم القـــرآن الكـــريم والشعر والخطب . يقول الباقلاني : " وكذلك لا يعـــرف المتوســـط من أهل اللسان (العربية) من هذا الشأن (إعجاز القـــرآن) ما يعرفه العالي في هذه الصنعة . فربما لا يعرف المتناهي في معـــرفة الشعر وحده ، أو الغاية في معرفة الخطب والرسائل وحدهما غور هذا الشأن ما يعرف من استكمل معرفة جميع تصاريف الخطاب ووجوه الكلام وطرق البراعة "[115].

كمـــا أن القـــول بأن الأعاجم كانوا سبب اللحن يوحي بأن العلماء اكتشفوا شيئاً جديداً غير مألوف لهم في كلام العرب ، غير أن هـــذه الأقـــوال تعود إلى فترة سابقة على جمع اللغة . وحتى بعد جمع الـــلغة يعترف أولئك العلماء أن كثيراً مما قالته العرب لم يجمع . ومن الأقوال المشهورة في ذلك ما يروى عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال : " ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلاّ أقلّه ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم

علم وشعر كثير "[116]. فلعل مما لم يعتد به جامعو اللغة أنواعاً منها لا تخضع للمقاييس التي وضعوها أولاً . ويبين ذلك ما روي عن أبي عمرو نفسه : قال الزبيدي : " قال ابن أبي سعد : قال ابن نوفل : سمعت أبي يقول لأبي عمرو بن العلاء : أخبرني عما وضعت مما سميته عربية ، أيدخل فيه كلام العرب كله ؟ فقال : لا ، فقلت كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة ؟ قال : أعمل على الأكثر ، وأسمي ما خالفني لغات "[117].

كما يروى عن عيسى بن عمر معاصر أبي عمرو بن العلاء خبراً مثل ذلك : " قال : وقلت له يوماً خبرني عن هذا الذي وضعت، يدخل فيه كلام العرب كله ؟ فقال : لا، قال: قلت فمن تكلم بخلافك ، واحتذى على ما كانت العرب تتكلم به ، أتراه مخطئاً؟ قال: لا، قلت: فما ينفع كتابك "[118].

ويروى أيضاً عن أبي عمرو أنه لو أجاز كل شيء لأجاز ما يخرج على الإعراب .

وإلى جانب هذه الأدلة فإنه يجب أن نلاحظ أنه إذا أمكن تفسير ظهور اللحن في الحواضر بتأثير الأعاجم فإنه لا يمكن أن يفسر هذا العامل ابتعاد اللهجات في بوادي الجزيرة عن نظام الإعراب منذ القديم وذلك ما يصوره نص لابن جني يقول فيه : " وقد كان طرأ علينا أحد من يدعي الفصاحة ، ويتباعد عن الضعفة الحضرية ، فتلقينا أكثر كلامه بالقبول له ، وميزناه تمييزاً حسَن في النفوس موقعه، إلى أن أنشدني يوماً شعراً لنفسه يقول في بعض قوافيه : اشئؤها وأدأؤها ، فجمع بين الهمزتين كما ترى ، واستأنف من ذلك ما لا أصل له ولا قياس يسوغه ، وعلى أن هذا الرجل الذي أومأت إليه من أمثل من

رأيـــناه ممـــن جاء مجيئه ، وتحلى عندنا حليته . فأما ما تحت ذلك من مرذول أقوال هذه الطوائف فأصغر حجماً ، وأنزل قدراً أن يحكى في جملة ما ينشي "[119].

كمـــا لا يفســـر أننا نجد اليوم في كثير من اللهجات العربية كثيراً من الظواهر التي أوردتها المصادر القديمة على المستويات اللغوية كافـــة من صوتية وصرفية ونحوية ومعجمية ودلالية . وهو ما يعني أن هذه اللهجات المعاصرة ليست إلاّ استمراراً للهجات كانت موجودة ولم تكن انحلالاً للفصحى .

وخلاصة القول فإن الوضع اللغوي في صدر الإسلام وعصر الدولة الأموية قد لا يكون على الصورة التي توردها كثير من المصادر العربية ، إذ أن هناك إشارات واضحة تدل على أن الوضع اللغوي في تـــلك الفـــترة مشابه للوضع اللغوي في العصر الحاضر . ويتميز هذا الوضـــع بوجـــود لغـــة أدبية تستعمل في الشعر والخطب والكتابة ، ويوجـــد إلى جانـــبها لهجات تختلف عنها في سماتها تستعمل في الحياة اليومية .

أمـــا نشـــأة الـــنحو فإنه قد لا يكون سببها انحلال الإعراب واضـــطراب اللغة . أما أسبابها فكثيرة . ومنها أن الدول عندما تقوم يكـــون من أول اهتماماتها اللغة ، فهي أحد العناصر المهمة في إرساء كيـــان الدولـــة . وقد كان اهتمام المسلمين باللغة مبكراً ؛ إذ تروي المصـــادر أن رســـول الله صـــلى الله عليه وسلم اشترط على أسرى المشـــركين بعـــد معركة بدر ممن لا يملك من يفدي به نفسه أن يعلم عشرة من المسلمين الكتابة "[120].

ومـــنها أن القرآن كان محور الحياة ؛ فلابد من قراءته وتفهم

معانيه وذلك ما يقتضي معرفة القوانين التي تضبطه . واهتمام عمر بن الخطاب بالشعر مشهور ؛ إذ رأى فيه معيناً على معرفة القوانين التي تضبط النص القرآني . كما أن شهرة عبدالله بن عباس رضي الله عنهما في هذا المجال لا تخفى على أحد . ويروي ابن سعد أن زر بن حبيش الأسدي كان أعرب الناس وكان عبدالله (بن مسعود) يسأله عن العربية "[121]. كما يوصف جبر بن حبيب " بأنه عالم باللغة بصيراً بها "[122].

فالنشاط الذي تركز حول القرآن والحديث والفقه والقراءات كفيل بأن ينشأ عنه اهتمام باللغة . ولذلك كان جمع اللغة منصباً منذ البداية على جمع أمثلة تشبه القرآن والحديث في النظام اللغوي الذي تخضع له ؛ ولم يهتم بغير ذلك من النماذج . وشيئاً فشيئاً أخذ النشاط يزداد حتى نشأ النحو .

وحتى لو قلنا إن الأعاجم كانوا السبب في نشأة النحو ، فإنه يجب أن ننظر إلى هذه المسألة من زاوية أخرى بعيدة عن التحيز . فيمكن أن يقال إن من الأسباب التي دعت إلى تأسيس النحو أن العرب بدأوا في تعليم لغتهم التي هي لغة رسالتهم إلى غير المتكلمين بها وليس بسبب الخوف على اللغة . وربما ساعد على التصور خبراً يرويه الزبيدي هو : قال ابن أبي سعد : " حدثنا علي بن محمد الهاشمي، قال: سمعت أبي يذكر ، قال : كان بدء ما وضع أبو الأسود الدؤلي النحو أنه مر به سعد وكان رجلاً فارسياً قدم البصرة مع أهله ، وهو يقود فرسه فقال : مالك يا سعد ؟ ألا تركب ؟ فقال : فرسي ضالع ، فضحك من حضره ، قال أبو الأسود : هؤلاء الموالي قد رغبوا في الإسلام ودخلوا فيه ، وصاروا لنا إخوة ، فلو علمناهم الكلام ، فوضع باب الفاعل والمفعول ، لم يرد علي عليه "[123].

إن هـــذه النظرة الموضوعية لنشأة النحو والوضع اللغوي في صدر الإسلام وحكم بني أمية ربما كانت أقرب إلى الحقيقة من النظرة التقليدية التي تلوم الأعاجم على انحلال نظام الفصحى وتجعلهم سبباً مباشراً في نشأة النحو .

دواعي التحيز اللغوي في القديم :

يبدو أن هناك أسباباً معينة لشيوع التحيز اللغوي في المصادر القديمـــة . ومن هذه الأسباب أن كثيراً منه جاء ثمرة للصراع العرقي بـــين الشـــعوب الإسلامية . فقد سيطر العرب بدينهم ولغتهم على الشـــعوب التي فتحوها . ولما لم يكن يجرؤ كثير من هؤلاء على الطعن في الإســـلام إما لقبولهم لـــه عن قناعة أو للخوف من عواقب ذلك الطعـــن ، فقـــد اتجه كثير منهم إلى الطعن على جنس العرب ولغتهم وعاداتهم وطرق معيشتهم . وقد قابل العرب هذا الطعن بالدفاع عن أنفسهم وعن لغتهم والطعن بالمقابل على غير العرب .

وكـــان هـــذا الصراع قوياً في العصر العباسي ؛ ولذلك نجد آثـــاره في كـــثير من المؤلفات . بل إن بعض المؤلفات تنص على أن الدافـــع لتأليفها كان الدفاع عن العرب واللغة العربية . ومن ذلك ما يقوله ابن دريد في مقدمة كتابه الاشتقاق : " وكان الذي حدانا على إنشاء هذا الكتاب أن قوماً ممن يطعن على اللسان العربي وينسب أهله إلى التســـمية بمـــا لا أصل لـــه في لغتهم ، وإلى ادعاء ما لم يقع عليه اصـــطلاح من أوليتهم ، وعذوا أسماء جهلوا اشتقاقها ولم ينفذ علمهم في الفحـــص عـــنها "[124] . ولذلك فإن قصده في كتابه أن يبين أن العرب عندما تسمي فإنها كانت تتبع أصولاً محددة وليس كما يدعي

الشـــعوبيون ويستشـــنعون . كما يتبين هذا الدافع بوضوح في كتب الجـــاحظ[125]. وكتاب إعجاز القرآن للباقلاني ، والجرجاني في دلائل الإعجاز[126]، والتوحيدي[127]، وابن جني[128].

والـــذي يشـــهد على قوة السجال العرقي وأثره في شيوع الـــتحيز اللغوي أن نرى فخر الأجناس بلغاتها كان واحداً من الأمور الـــتي تذكـــر في معرض مفاخر كل جنس . ومن ذلك ما نجده عند الجـــاحظ في رسالة مناقب الترك ، وفي فخر السودان على البيضان ، وفي كـــتاب الحيوان في عدة مواضع . كما أنه شاع وضع الأحاديث في هـــذا الشأن . فبعضها في الثناء عل العرب وبعضها في الثناء على غيرهم من الأجناس[129].

كمـــا أن العوامـــل السياسية والدينية قد تكون وراء شيوع الثـــناء على لغة قريش . بل إن ذلك تجاوز اللغة إلى الثناء على قريش بمجملها وعلى بني هاشم خاصة بما يتجاوز حدود المعقول . ومن ذلك مـــا يقوـــله الجـــاحظ : " أنه رفعت ببركة ملكهم الطواعين والموتان الجارف ، وأن أكثر ما يلدون الأولاد دون البنات[130] وأنه لم يوجد قـــط في أطفـــالهم طفـــل يحبـــو ، بل يزحف لئلا ينكشف منه شيء يسوؤه ونساء قريش يحكى أنهن يلدن بعد سن الستين[131].

وقـــد وضـــعت هنا كثـــير من الأحاديث التي تثـــني على قريش[132].

وينـــبغي ألاّ نستغرب وجود هذه الأخبار فقد كان الوضع في الحديـــث والشعر واللغة منتشراً في تلك الفترة . وشهادة المعاصرين لذلك مهم جداً أخذها في الاعتبار . ومن تلك الشهادات شهادة ابن ســـلام الجمحي في كتابه طبقات فحول الشعراء . فهو يقول : " وفي

الشعر مصنوع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه ، ولا حجة في عربية ، ولا أدب يستفاد ، ولا معنى يستخرج ، ولا مثل يضرب ، ولا مديح رائع ، ولا هجاء مقذع ، ولا فخر معجب ، ولا نسيب مستطرف ، وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب . لم يأخذوه عن أهل البادية ، ولم يعرضوه على العلماء "[133].

وقد ذكر محمد بن سلام بعض الذين أفسدوا الشعر وهجنوه وحملوا كل غثاء منه ، ومنهم محمد بن إسحاق بن يسار مولى آل مخرمة بن المطلب بن مناف ، فقد كتب " في السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط ، وأشعار النساء فضلاً عن الرجال ، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود ، فكتب لهم أشعاراً كثيرة ."[134].

ويقول : " فلما راجعت العرب رواية الشعر ، وذكر أيامها ومآثرها ، استقل بعض العشائر شعر شعرائهم . وما ذهب من ذكر وقائعهم . وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم ، فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على ألسنة شعرائهم . ثم كانت الرواة بعد ، فزادوا في الأشعار التي قيلت "[135].

ويقول : " وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها: حماد الراوية . وكان غير موثوق به ، وكان ينحل شعر الرجل غيره ، وينحله غير شعره ويزيد في الأشعار "[136].

ويقول : " سمعت يونس يقول : العجب ممن يأخذ عن حماد ، كان يكذب ويلحن ويكسر "[137]، ويعلق على أبيات حملت على لبيد بقوله : " ولا اختلاف في أن هذا مصنوع تكثر به الأحاديث ، ويستعان به على السهر عند الملوك ، والملوك لا تستقصي "[138].

وهـــذه الأقـــوال تزيد ما ذهبنا إليه من أن كثيراً من الأخبار والأحاديث التي تفضل قريشاً لا تصح . وذلك لوفرة دواعي الوضع.

ومـــن الجدير بالذكر هنا أن العلماء العرب القدماء لم يكونوا دائمـــاً مـــتحيزين . إننا نجدهم إذا لم يكونوا تحت تأثـــير العوامل الســـابقة متحررين في نظرهم إلى اللغة وبعيدين عن قصر الفصاحة عـــلى العـــرب أو فريق منهم . ومن الأمثلة على ذلك ما نجده عند الجـــاحظ الـــذي رأينا تحيزه فيما سبق فيقول الجاحظ : " والإنسان فصيح ، وإن عبر عن نفسه بالفارسية أو بالهندية أو بالرومية . وليس العـــربي أسوأ فهماً لطمطمة الرومي من الرومي لبيان لسان العرب . فكـــل إنســـان من هذا الوجه يقال لـــه فصيح . فإذا قالوا : فصيح وأعجم ، فليس هذا المعنى يريدون ، إنما يعنون أنه لا يتكلم العربية ، وأن العرب لا تفهم عنه "[139]. ويقول : " ولكلٍّ نصيب من النقص، ومقـــدار مـــن الذنـــوب ، وإنمـــا يتفاضل الناس بكثرة المحاسن وقلة المســـاوىء . فأمـــا الاشتمال على جميع المحاسن ، والسلامة من جميع المساوىء دقيقها وجليلها وظاهرها وخفيها ، فهذا لا يعرف "[140].

وعـــلى الرغم من تحيزه إلى قريش وفصاحة لغتها ، فإننا نجده في كتاب البيان والتبيين يصف غير قريش بالفصاحة ولا يقصرها على أي قـــبيل . ومن ذلك قوله : " ولإياد وتميم في الخطب خصلة ليست لأحـــد مـــن العرب ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي روى كلام قس بن ساعدة وموقفه على جمله بعكاظ وموعظته ، وهو الذي رواه لقريش والعرب ، وهو الذي عجب من حسنه وأظهر من تصويبه . وهذا إسناد تعجز عنه الأماني ، وتنقطع دونه الآمال "[141] كما يقول : " وكذلك ليس لأحد في ذلك مثل الذي لبني تميم : لأن

النبي عليه السلام لما سأل عمرو بن الأهتم عن الزبرقان بن بدر ، قال: " مانع لحوزته ، مطاع في أدنيه . فقال الزبرقان : أما إنه قد علم أكثر مما قال ، ولكنه حسدني شرفي . فقال عمرو : أما لئن قال ما قال فوالله ما علمته إلاّ ضيق الصدر ، زمر المروءة ، لئيم الخال ، حديث الغنى .

فلما رأى الإنكار عن عيني رسول الله قال : يا رسول الله ، رضيت فقلت أحسن ما علمت ، وغضبت فقلت أقبح ما علمت ؛ وما كذبت في الأولى ولقد صدقت في الآخرة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك : إن من البيان لسحراً "[142]. ويورد كذلك ما قاله معاوية رضي الله عنه للأحنف بن قيس " لقد أوتيتم تميم الحكمة مع رقة حواشي الكلم "[143]، ويقول : " وشأن عبدالقيس عجب ، وذلك أنهم بعد محاربة زياد تفرقوا فرقتين : فرقة وقعت بعمان وشق عمان ، وهم خطباء العرب . وفرقة وقعت بالبحرين وشق البحرين وهم أشعر قبيل في العرب ، ولم يكونوا كذلك في سرة البادية وفي معدن الفصاحة ، وهذا عجب "[144]. وقوله : " وأنا أقول : إنه ليس في الأرض كلام هو أمتع ولا آنق ، ولا ألذ في الأسماع ، ولا أشد اتصالاً بالعقول السليمة ، ولا أفتق للسان ، ولا أجود تقويماً للبيان ، من طول استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء والعلماء البلغاء "[145].

ويمكن أن يضاعف عدد هذه النصوص من كتابه هذا وكتبه الأخرى التي لا ترى الفصاحة مقصورة على قبيلة معينة . فهو يذكر فصحاء الأعراب وفصحاء الحضر وفصحاء الحجازيين وفصحاء النجديين إلى غير ذلك . وكذلك ما ورد في الأغاني عن خلف الأحمر:

" أخبرني المهلبي والجوهري قالا : حدثنا عمر بن شبة قال : سمعت خلاداً الأرقط يقول : سمعت خلفاً الأحمر يقول : " لا يعرف من أشعر الناس ، كما لا يعرف من أشجع الناس ، ولا من كذا ولا من كذا ، لأشياء ذكرها خلف ونسيتها أنا . أبو زيد عمر بن شبه يقول هذا "[146]، ولعل من هذه الأشياء من هو أفصح . وكذلك ما يقوله ابن جني عن تساوي لغات العرب في حجيتها .

روى صاحب الأغاني ج 10 ص 83 قال : " أنشدنا مروان بن أبي حفصة يوماً شعر زهير ثم قال : زهيرٌ والله أشعر الناس ، ثم أنشد للأعشى فقال : الأعشى أشعر الناس ، ثم أنشد شعراً لامرىء القيس فقال : امرىء القيس أشعر الناس ، ثم قال : والناس والله أشعر الناس أي أن أشعر الناس من أنشدت له فوجدته قد أجاد ، حتى ينتقل إلى شعر غيره ".

فيجب ألا نثق دائماً في ألفاظ التفضيل هذه كل الثقة .

فأبو عمرو يروى عنه ثلاثة أخبار في كل واحد منها يفضل قبيل .

ومثل ذلك ما نجده عند ابن حزم إذ يقول : " وقد توهم قوم في لغتهم أنها أفضل اللغات وهذا لا معنى له لأن وجوه الفضل معروفة ؛ وإنما هي بعمل أو اختصاص ولا عمل للغة . ولا جاء نص في تفضيل لغة على لغة وقد قال تعالى : (وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه ليبين لهم) وقال تعالى : (فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون). فاخبر تعالى أنه لم ينزل القرآن بلغة العرب إلاّ ليفهم قومه عليه السلام لا لغير ذلك . وقد غلط في ذلك جالينوس فقال : إن لغة اليونانيين أفضل اللغات لأن سائر اللغات إنما تشبه إما نباح الكلاب أو نقيق الضفادع .

قال علي : وهذا جهل شديد لأن كل سامع لغة ليست لغته ولا يفهمها فهي عنده في النصاب الذي ذكر جالينوس لا فرق .

وقد قال قوم : العربية أفضل اللغات لأنه بها نزل كلام الله تعالى ، وقال علي : وهذا لا معنى له ، لأن الله عزوجل قد أخبرنا أنه لم يرسل رسولاً إلاّ بلسان قومه . وقال تعالى : (وإن من أمة إلاّ خلا فيها نذير)، وقال تعالى : (وإنه لفي زبر الأولين). فبكل لغة قد نزل كلام الله تعالى ووحيه ، وقد أنزل التوراة والإنجيل والزبور وكلم موسى عليه السلام بالعبرانية . وأنزل الصحف على إبراهيم عليه السلام بالسريانية . فتساوت اللغات في هذا تساوياً واحداً "[147].

ويبلغ ابن خلدون حداً أبعد من كل ما سواه في موقفه من اللغة التي كانت تستعمل في عصره ، فيقول : " ومازالت هذه البلاغة والبيان ديدن العرب ومذهبهم لهذا العهد . ولا تلتفتن في ذلك إلى خرفشة النحاة أهل صناعة الإعراب القاصرة مداركهم عن التحقيق حيث يزعمون أن البلاغة لهذا العهد ذهبت ، وأن اللسان العربي فسد اعتباراً بما وقع أواخر الكلم من فساد الإعراب الذي يتدارسون قوانينه . وهي مقالة دسها التشيع في طباعهم وألقاها القصور في أفئدتهم "[148].

بل يزيد على ذلك ليرى إمكان إحلال قواعد جديدة لتضبط اللغة المعاصرة التي تخلو من الإعراب ، فيقول : " ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد ، واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الإعرابية التي فسدت في دلالتها بأمور أخرى وكيفيات موجودة فيه ، وتكون لها قوانين تخصها ؛ ولعلها تكون في أواخره على غير المنهاج الأول في لغة مضر . فليست اللغات وملكاتها مجاناً"[149].

وخلاصة القول إنه يجب أن نرى الآراء المتحيزة للغة العربية في المصـــادر القديمـــة في سياقها الزمني والثقافي وألاّ تؤخذ على أنها حقائق ثابتة ؛ وذلك أننا نجد المصادر المتحيزة نفسها في بعض الأحيان تعود إلى النظر إلى هذه الأمور بموضوعية .

التحيز اللغوي في العصر الحاضر :

تمتـــلىء الدراسات العربية في العصر الحاضر بظواهر التحيز الـــتي رأيـــناها في المصادر العربية القديمة . فلا تخلو الكتب التاريخية والـــلغوية والأدبيـــة والمجلات المتخصصة وغير المتخصصة والجرائد والـــندوات والمحاضـــرات من أنواع التحيز هذه أو بعضها . وتختلف هـــذه الدراسات بعضها عن بعض في الكيفية التي توجد فيها . فبعض هـــذه الدراسات يحتوي على هذه التحيزات بصفتها التقريرية المنقولة عـــن المصـــادر العربية القديمة . وهذا النوع أكثر من أن يحصى . أما بعضـــها الآخـــر فتظهر فيه على شكل نظريات يبحث لها عن براهين وشواهد لتدعيمها .

والمـــلفت للنظر في الوقت الحاضر أن هذا التحيز لا ينظر له عـــندما يكون تحيزاً للغة العربية وحسب ، بل ينظر له إذا كان تحيزاً ضـــد اللغة العربية أيضاً . ويمكن أن تناقش هذه الظاهرة في جوانبها المـــتحيزة للغة العربية أولاً ثم في جوانبها المتحيزة ضد اللغة العربية . وسوف أعرض بعض الأمثلة التي تمثل كلا الاتجاهين فيما يلي :

اللغة العربية أم اللغات :

تأثـــرت الدراســـات المتعـــلقة بالعـــربية في العصر الحاضر

بالـــنظريات اللســـانية التي جدت في الغرب . وكما رأينا فقد كانت الدراســـة اللســـانية في أحد جوانبها المهمة في أوروبا مهتمة بالتأريخ للغات وتتبع الأصول التي تفرعت عنها . ومن أوجه التأثر بالغرب في هـــذه الـــناحية أننا نجد كتباً ألفت في التأريخ للغة العربية على النمط نفسه .

وهناك ثلاثة كتب في الأقل تزعم أنه يمكن أن يبرهن على أن الـــلغة العـــربية أقدم اللغات وأنها الأصل الذي تفرعت منه اللغات الأخرى .

وأول هـــذه الكـــتب كـــتاب الأب أنستاس ماري الكرملي "نشـــوء الـــلغة العربية ونموها واكتهالها ". يقول في تصديره لكتابه : "هـــذا بحـــث لغـــوي ، جريت فيه على الأسلوب الحديث تمحيصاً لـــلحقيقة، ودفاعـــاً عـــن اللغة المضرية ، وإيضاحاً لما فيها من دقائق الأوضـــاع . وخفايـــا الأسرار ، وغوامض الحروف ، وخصائصها ، وبدائـــع الصيغ وأوزانها ، وما فيها من مختلفات لُغى القبائل ، متوقعاً البلوغ به إلى الحق ، غير مبتغ أجراً ولا شكوراً ؛ إنما كل أمنيتي خدمة العربية ، وحمل أبنائها على السير في مثل هذا المنهج ، ليعلم غيرهم أن لســـان العـــرب فوق كل لسان ، ولا تدانيها لسان أخرى من ألسنة العالم جمالاً ، ولا تركيباً ولا أصولاً ، ولا ولا ولا "[150].

ويتكون الكتاب من تسعة وثلاثين فصلاً يعرض فيها الكرملي آراءه مقارناً بين اللغات ، مرجعاً كثيراً من الكلمات في لغات عديدة إلى أصول عربية . ويذكر أن من أسباب عدم اهتمام المستشرقين بهذه الحقيقـــة أنهـــم " لا يريدون أن يكون بين العربية وبين لغاتهم أدنى صلة، أو مجانسة ، أو ملابسة ، أو مشابهة ، خوفاً من أن يقال لهم ، أو

أن نقول لهم نحن العرب : بيننا وبينكم ، يا قوم، لحمة نسب قديم ، وصلة رحم ؛ وهو مما يتبرأون منه ، وينبذونه من مسامعهم ، بل ينفضون ثيابهم عند سماع هذه الكلمات ، كأنها تدنسهم ، وتدنس ثيابهم ، بل لا يريدون أن يتصوروا مثل هذه الفكرة ، الهادمة لأبنيتهم المتصدعة المتشققة ، تلك الأبنية التي أقاموها منذ أن وضع أسسها إمامهم الألماني الأكبر مكس مَلَر "[151].

ولست أريد هنا مناقشة ما في الكتاب من آراء أو اشتقاقات ، وسوف أرجيء هذا إلى ما بعد الفراغ من الكتابين الآخرين .

والكتاب الأول لمؤلف هندي اسمه محمد أحمد مظهر وعنوانه " العربية : أصل اللغات كلها ". ويؤسس المؤلف كتابه على توقع لمرجع الطائفة الأحمدية التي ظهرت في الهند ، فيقول ما ترجمته: " زعم حضرة ميرزا غلام أحمد ، المسيح الموعود ، أن اللغة العربية أم اللغات كلها ، وكان زعمه مبنياً على المعرفة التي أوحيت إليه "[152]. كما يشير إلى أن حضرة ميرزا غلام أحمد ألّف كتاباً سنة **1895**م أسماه "منن الرحمن " حاول فيه البرهنة على هذا القول مستدلاً بعدد من الآيات القرآنية . ويحدد ميرزا رأيه في كلمة ألقاها في مؤتمر الأديان الكبرى الذي عقد في لاهور سنة 1896م بقوله : " لقد بيّنا في كتابنا " منن الرحمن " أن اللغة العربية هي اللغة الوحيدة التي تستطيع القول بأنها اللغة الإلهية ، اللغة التي تنبثق منها كل أنواع المعرفة ، واللغة الأم لكل اللغات ، والوسيط الأول والأخير لحمل الوحي الإلهي . فهي الأولى لأنها كلمة الله الأولى ، ولأنها اللغة التي تعلم البشر أن يصوغوا لغاتهم منها ، كما أنها الأخيرة لأن كتاب آخر الرسالات السماوية أي القرآن كان باللغة العربية "[153].

ولتأكيد هذا الرأي يؤلف مظهر هذا الكتـــاب ، والأدلة التي أتى بها تقوم على بعض المبادىء التي ذكرها في المقدمة ، وهي :

1 وجـــود قوانين محددة عن طريقها اشتقت اللغات كلها جذورها من اللغة العربية .

2 أن هذه القوانين واضحة وبسيطة ، كما أنها مقبولة في الدراسات الفيلولوجية ، لكن الغربيين لم يحاولوا تطبيقها على العربية.

3 أنـــه يمكن تطبيق هذه القوانين على اللغات كلها إذا قسنا جذور الكلمات في كل اللغات إلى عشرة أقسام(154).

ويـــتكون الكتاب من ثلاثة أبواب : ويتكلم في الباب الأول عن مسألة النقاش في أصل اللغة . ويتفرع النقاش فيه إلى سبب تجاهل الأوروبيين للكلام عن اللغة العربية عندما يناقشون مسألة أصل اللغة، ويدلـــل مـــن بعد على أن اللغة العربية عالمية وأنها لغة منضبطة ، وأنهـــا أحســـن اللغات . ثم يتكلم عن المبادىء التي اتبعها في اشتقاق جذور الكلمات في اللغات المختلفة من اللغة العربية .. إلخ .

وفي الباب الثاني يحلل الكيفية التي اشتقت بها اللغات جذورها مـــن العـــربية . ويتكون الباب الثالث من قاموس للجذور من مختلف اللغات وأصولها العربية .

أما القوانين التي تحكم تغير الجذور العربية إلى الجذور المقابلة لها في تلك اللغات فهي عشرة :

1 أن جذر الكلمة يمكن أن يكون من ثلاثة أصوات ساكنة.

2 أنه يمكن أن يتكون من صوتين ساكنين .

3 أنه يمكن أن يتكون من صوت ساكن واحد .

4 أنـــه يمكن أن يتكون من واحد من أصوات اللين (الألف والواو والياء) .

وهـــذه هي الجذور الأساسية في العربية التي يمكن أن تغير في الـــلغات الأخرى ، وذلك بتغيير ترتيبها أو بالزيادة عليها أو النقص منها بحسب القوانين الستة الأخرى وهي :

5 قلب الجذر الثلاثي .

6 قلب الجذر الثنائي .

7 الزيادة في أول الجذر .

8 الزيادة في نهاية الجذر .

9 إبـــدال صـــوت في جذر الكلمة العربية بصوت آخر في الموضع نفسه .

10 حذف صوت من بداية الجذر العربي في نظيره غير العربي[155] .

ويمكن أن نلاحظ هنا أن القوانين هذه لن يصعب عليها تغيير أي كـــلمة في أي لغـــة إلى أي صيغة نريدها ، ولذلك لن أتوقف عند مناقشة تحليله .

والكتاب الثاني هو من تأليف تحية عبدالعزيز إسماعيل بعنوان : " اللغة العربية الفصحى ، أم اللغـــات الهنديـــة والأوروبية وأصـــل الكـــلام ". وقد نشر في القاهرة سنة 1989م[156] . وهذا الكتاب عـــلى الـــرغم من الضجة التي قامت حوله لا يستحق أي تعليق ، وذلـــك لأنه مكتوب بلغة إنجليزية ركيكة جداً وهو الأمر الذي أدى إلى الغمـــوض في كثير من النقاط التي نوقشت . هذا أولاً. وثانياً لأنه يفقد أدنى درجات التخطيط المنهجي الذي رأيناه في الكتاب السابق .

فهـــو يدخل مباشرة في معالجة الموضوع من غير أن يرسم لنا أهداف البحث والطرق التي يتبعها في معالجة القضايا المطروحة ، وثالثاً ، هو ملآن بالأخطاء التاريخية عن اللغة العربية ذاتها . ومن ذلك ما تذكره المؤلفـــة في المقدمة من أن النحويين العرب في القرن السابع الميلادي ســـجلوا كـــل كلمة نطقها العرب . وهذا القول ليس صحيحاً لأن الـــلغويين العرب لم يبدأوا في تسجيل الشعر العربي ومتن اللغة إلاّ في القـــرن الثامن ثم إنهم باعترافهم لم يسجلوا مما قالت العرب إلا أقله ، كما قال أبو عمرو بن العلاء .

واســـتخدامها للرموز الصوتية في رسم الكلمات ليس دقيقاً كمـــا أنه لم يكن مطرداً ولم يكن صحيحاً في بعض الأحيان . وكذلك اســـتخدامها لكثير من الاختصارات من غير أن تبينها . ولم تعتمد إلاّ عـــلى قـــليل من المراجع المعتمدة في مناقشة هذه القضايا . ويمتلىء الكـــتاب بالثـــناء على اللغة العربية وذلك مثل قولها : " أن اللغة العـــربية أرتب اللغات من حيث القواعد وأكثرها اقتصاداً من حيث تركيب الكلمات وقوانين اللغة ، وتلك علامات تدل على رقي اللغة كمـــا أثـــبت عـــلماء اللغات من قبل . أما اللغات المشتقة منها فقد حـــاولت تعويض ما فقدت بطريقة عشوائية وغير اقتصادية ، مما أثر على تكوينها وقواعدها وقدرتها على التعبير "[157].

ويجمـــع هـــذه الكتب الثلاثة وغيرها أنها غير مقنعة علمياً . وحـــتى إن صـــحت هذه المقارنات التي توردها هذه الكتب فإنها لا تفيدنا شيئاً في إثبات أن الأصل لهذه الكلمات كانت الجذور العربية. فأقصـــى مـــا يمكـــن أن تدل عليه إن كانت صحيحة أن هناك تشابهات بين اللغة العربية واللغات الأخرى . كما أنه يمكن النظر إلى هـــذه التشابهات على أن مصدرها الصدفة المحضة أو اقتراض اللغات

بعضـــها مـــن بعض على مدى أكثر من ثمانية آلاف سنة من هجرات الأقوام واحتكاكهم بعضهم ببعض[158]. والدليل على أن ما وصلت إليه هذه الكتب ليس صحيحاً أننا نجد كتباً أخرى تأخذ هذه الأمثلة نفســـها لكي تزعم أن اللغة العربية نفسها مشتقة من لغات أخرى . ومـــن ذلك ما يراه لويس عوض من أن اللغة العربية فرع من فروع أسرة اللغات الهندية والأوروبية[159]. وكذلك ما يراه المؤلف التركي نعيم حازم أوناط ، إذ يزعم أن مقارنة الجذور العربية بالجذور التركية تـــدل على أن اللغة العربية أخذت أكثر جذورها من جذور من اللغة الـــتركية[160]. بـــل إن هـــذا المؤلف يرد في كتابه هذا على كتاب الكرملي الذي عرضناه هنا .

من التحيزات الأخرى للغة العربية :

يبدو أن مطبوعات الجامعة العربية لها نصيب وافر من إشاعة الـــتحيز الـــلغوي في المســـتوى الثقافي عموماً . ومن المطبوعات التي تصـــدرها المراكز التابعة للجامعة ، مجلة اللسان العربي التي تصدر في الرباط . وفي هذه المجلة على مدى تاريخها عدد كبير من المقالات التي تبـــلغ في إعلان ولائها للغة العربية مبلغاً من الحماس يمكن أن يخرجها عن الموضوعية .

كمـــا أن مجلة شؤون عربية وهي مجلة تصدرها الجامعة يظهر فيها بين حين وآخر مقالات لها الصفة نفسها . ومن تلك المقالات ما كتـــبه سمر روحي الفيصل بعنوان " المشكلة اللغوية العربية ". ويبدأ تـــلك المقالـــة بدق ناقوس الخطر إذ " إن الفصحى تتردى ، والعامية تتألق ، والتعريب يتلكأ ، والسهام في كنانة أعداء الأمة العربية وافرة

جاهزة لتصيب من لغتنا مقتلاً ". ثم يجعل هدفاً لمقالته تلك البحث عن " الجواب الشافي ، والحل الكافي " لهذه المسائل . ثم يستمر في تناول مشـــكلات اللغة العربية كالإزدواجية اللغوية ، ومسألة تيسير العربية والتعريب .

وهـــي مقالـــة حماسية يدعو في مقدمتها إلى الحد من انتشار العامية بتعزيز تعلم الفصيحة[161]، وتشجيع معلمي اللغة الفصيحة ، وأن العاميـــة عاجـــزة عن توحيد العرب لأن نطقها وفكرها متغيران بحســـب البيـــئات الجغـــرافية كمـــا أنها " حملت كثيراً من الفكر التقليدي طوال قرون من الإستعمار والتخلف ، فكيف نرتضيها لغة، ونحن نفهم التقدم على أنه تحول في الرؤية وفي الخبرة "[162].

ثم يـــناقض نفســـه بقوله إننا " لا نخاف من العامية ، لأننا لا نـــراها بعيـــدة جداً عن الفصيحة "[163]، ثم يرجع إلى مهاجمة العامية فيقـــول : " أن الـــنحو حصـــن العربية من اللحن الذي فشا إثر الفـــتوحات ، وأنـــه مازال يؤدي هذه المهمة الجليلة . فإذا أراد دعاة العاميـــة غـــزو الفصيحة لم يكن لهم بد من التشكيك بالحصن الذي يحميها ويحفظ جوهرها "[164]. ويعود مرة أخرى ليرى أن واحدة من طـــرق الإصـــــلاح اللغوي " حقن جسد الفصيحة بدماء اللهجات العربية " وإزالة اللبس بين العامية واللهجات "، كما يدعو إلى أن نحرر أنفسنا من القداسة التي أضفيناها على لغتنا "[165].

وهكـــذا نـــرى أن معالجـــته تغلب عليها الحماسة العاطفية والاضطراب والتناقض .

ومـــن الهيئات العلمية العربية التي تشبه هيئات جامعة الدول العـــربية في تـــناول قضـــايا اللغة العربية تناولاً تغلب عليه في بعض

الأحيان العاطفة والبعد عن التحليل العلمي الدقيق مركز دراسات الوحدة العربية . وكمثال على نوع الدراسات التي تنشر في مطبوعات هذا المركز كتاب محمد المنجي الصيادي " التعريب وتنسيقه في الوطن العربي "، وعلى الرغم مما يحويه الكتاب من معالجة منهجية في بعض جوانبها لهذه القضية إلاّ أننا نجد فيه ميلاً إلى تبجيل اللغة العربية بشكل زائد. ومن ذلك أنه يرى أنه يمكن النظر في احتمال أن تكون اللغات الهندية والأوروبية أو الآرية تعود أصولها إلى اللغة العربية[166]. كما يتضح ذلك من تنبيه لبعض أفكار عبدالله بن خميس وعبدالحق فاضل عن اللغة العربية والمنشورة في مجلة " اللسان العربي " على الرغم من أن كثيراً من هذه الأفكار ليست إلاّ تخرصات[167]. وكذلك كلامه عن ارتباط العربية بالإسلام[168].

ونجد في بعض الأحيان مقالات في مجلة المركز وهي "المستقبل العربي " تتصف بعدم الموضوعية في مناقشتها لقضية اللغة . ومن ذلك أن عددها 12 لسنة 1987م يتضمن ثلاث مقالات عن هذه القضية تبتعد عن النظرة العلمية المنهجية المحايدة في معالجة قضايا العربية . وأول مقالة هي بقلم أحمد الحمو بعنوان " حول واقعنا اللغوي في الماضي والحاضر "[169].

وفي بداية مقاله يرى أن الآيات القرآنية التي تتكلم عن إنزال القرآن الكريم بلسان عربي تؤكد أولوية اللغة العربية على غيرها من اللغات ؛ ويرجع ظهور العاميات إلى انحلال النظام اللغوي الذي تمثله الفصحى نتيجة لدخول الأعاجم في الإسلام ويقول : " يتضح لنا أن اللهجات الدارجة لم تنشأ عن تطور طبيعي في لغتنا ، بل نشأت عن ضياع الشخصية العربية في لجج من البحار الأعجمية "[170]. كما

يقـــول إن " إســـقاط الإعراب من اللغة الدارجة لا يعود إلى أسباب عـــربية ذاتية بحتة ، كما يحلو لبعض الباحثين اعتباره . فكثيراً ما يعمد هـــؤلاء إلى مقارنـــة هـــذا التطور المؤسف الذي أصاب اللغة العربية بالمـــنهج الـــذي سارت عليه بقية اللغات السامية الأخرى ، أو الذي ســـارت عليه أيضاً اللغات الأوروبية التي تفرعت عن اللغة اللاتينية وهي لغة معربة أيضاً . والثابت تاريخياً أن الإعراب عاش قروناً طويلة في لغـــة الـــبادية بعد عصر الفتح ، ولايزال ماثلاً في بعض بقاياها إلى يومنا الحاضر "[171]. ثم يرجع كثيراً من الظواهر اللغوية في اللهجات المعاصـــرة إلى تـــأثير الـــلغة الفارسية . ومن ذلك كسر ما قبل آخر الكـــلمة إذا كانت منتهية بالتاء المربوطة . ولكن أبا عمرو ابن العلاء كان يفعل ذلك وأجاب عندما سئل ؛ إن هذه إمالة العرب. فهي قديمة في اللغة العربية وليست من تأثير اللغة الفارسية . ويقرر أن الاختلاف بـــين الـــلغة واللهجة لا يعدو أن يكون اختلافاً أسلوبياً . ويقول إن العاميـــات العربية اليوم مزيج من " كلمات فصيحة محرفة ومفردات أعجميـــة وأصـــول لا تعرف هويتها المعجمية وتشترك هذه العاميات بافتقارها إلى قواعد ثابتة ، سواء على الصعيد الصوتي أو التركيبي أو الدلالي "[172].

ويـــناقض نفســـه عندما يرى أن أحد المؤثرات في اللهجات العـــربية اليـــوم يمكن ردها إلى الخلافات الموجودة في لهجات القبائل العـــربية قـــبل الفتح . ثم يتحدث عن عجز العامية عن حمل مضامين الفكـــر العـــلمي الراقي في مقابل قدرة الفصحى على ذلك . ويشيد بقـــدرة اللغة الفصحى على توفير المصطلحات العلمية بسبب قدرتها على التفريع والاشتقاق .

ويـــناقض نفســـه مـــرة أخرى في قوله إن الأصوات اللغوية المســـتعملة في الفصحى مازالت هي ذاتها مستعملة في لهجاتها الدارجة مـــع أنـــه قـــرر من قبل أن كثيراً من الأصوات العربية تغير بسبب الأعاجم .

ثم يتكلم عن واقع الفصحى وأن النحو كان الهدف من نشأته تـــنقية الفصـــحى من اللحن الذي أصيبت به نتيجة لاختلاط العرب بالأعـــاجم . ثم يرى أن يُصلح النحو بطرق معينة مثل عدم المبالغة في تقديـــر العامل النحوي ، والتخفيف من الاعتماد على القياس ، وأن يُهـــتم بـــتدريس الأصوات . وهو في ذلك بين نقيضين ، الثناء على النحويين القدامى ، والتشنيع على بعض آرائهم .

وبالجمـــلة فإن هذه المقالة تبتعد عن البحث العلمي للظواهر التي درستها وتدخل في باب التحيز اللغوي .

التحيزات ضد اللغة العربية في العصر الحاضر :

وكمـــا تحيـــز عدد كبير من الكتاب إلى اللغة العربية نجد أن هـــناك عـــدداً كبيراً أيضاً تحيزوا ضدها . ويأتي هذا التحيز ضد اللغة العـــربية إما من جهل باللغة وكيفية عملها مثل كتابات سلامة موسى وغـــيره أو مـــن نظرة إقليمية بحتة مع هذا الجهل مثل كتابات سعيد عقـــل، أو مـــن جهل وعداء للعرب وتاريخهم وحضارتهم كما هو في كـــتابات بعض المستشرقين ، أو من تأثر ببعض النظريات الحديثة عن اللغة وصلتها بالفكر .

وسأقصـــر حديثي هنا على النوع الأخير لأن الأنواع الأولى تكـــاد تختفي . والهدف من هذا النوع الأخير تبيين أن العرب يعانون

أزمـــة نفسية قاسية بسبب لغتهم ، كما أن هذه اللغة كانت السبب وراء عجـــز العرب في المجالين العلمي والتقني لعدم قدرتهم على صوغ المصـــطلحات العـــلمية الدالة عليهما وعدم القدرة عن التعبير عنهما أساساً .

وقد كان لفرضية سابيروورف التي ذكرناها سابقاً أثر كبير في صـــوغ هذه المقولات عن اللغة العربية وتلبيسها لباساً علمياً . ومن أول المقالات التي حاولت دراسة اللغة العربية في ضوء هذه الفرضية مـــا كتبه الكاتب اللبناني ي . شوبي في سنة 1951م ، في مجلة الشرق الأوسط بعنوان " تأثير اللغة العربية على نفسية العرب"[173] .

وفي محاولـــته لتبيين الأثر السيء المزعوم للغة العربية على نفسية العرب ، حاول شوبي أن يتتبع الأسباب التي جعلت هذه اللغة عـــلى هذا النحو ؛ وقد أجمل هذه الأسباب في ما يراه من عيوب فيها وهي : الازدواجية اللغوية ، والغموض ، والنقص النحوي ، واللعب بالكـــلمات ، ونظـــرة العرب الدونية إلى لغتهم ، وبشاعة أصواتها ، وكثرة المترادفات فيها ، فإذا كانت اللغة تسيطر على الفكر فإن لغة بهـــذه العيوب ستكون عبئاً على فكر متكلميها ومانعة لهم من التفكير السليم .

ويكفـــي في الرد على هذه الادعاءات الساذجة أن الفرضية التي أوحت بها (أي فرضية سابيروورف) لم يعد أحد يحملها على محمل الجـــد . ولذلك فإنه من الأحسن ألا نناقش هنا هذه الأفكار المتطرفة التي مضى زمنها .

غير أن ما كتبه شوبي كان سنداً اعتمد عليه بعض العنصريين الجهلة، إذ اتخذ دليلاً على رسم صورة قاتمة للعرب في أذهان الغربيين.

ومـــن أشـــهر الكتب في هذا المجال كتاب المؤلف الإسرائيلي رافائيل بتاي " العقل العربي ". ويحوي هذا الكتاب فصلاً بعنوان " تحت حكم الـــلغة "[174]. ويتتـــبع فيه تلك الخصائص التي أتى بها شوبي ويفسر بموجبها كثيراً من تصرفات العرب المعاصرين .

وقـــد نقد هذا الكتاب كثير من المفكرين العرب[175]، لكنه يجـــب ألاّ يزعجـــنا وذلك بسبب تأسيسه على فرضية ثبت بطلانها ، بالإضافة إلى أن مؤلفه ليس شخصاً محايداً ، فله أغراض عنصرية غير علمية .

ومـــن ذلك ما نجده لدى محمد عابد الجابري إذ يرى أن اللغة لهـــا تأثير كبير على نظرة الإنسان إلى الكون ، فيقول : " وإذا أضفنا إلى ذلـــك ما أكدته دراسات حديثة عديدة من كون اللغة أي لغة تحدد أو على الأقل تساهم مساهمة أساسية في تحديد نظرة الإنسان إلى الكـــون وتصوره له ككل أو كأجزاء ، لاحظنا أن اللغة العربية ربما كـــانت الـــلغة الحية الوحيدة في العالم التي ظلت هي هي في كلماتها ونحوها وتراكيبها منذ أربعة عشر قرناً على الأقل ، أدركنا ما يمكن أن يكون من تأثير لهذه اللغة على العقل العربي ونظرته إلى الأشياء ، تلك النظرة التي لابد أن تتأثر قليلاً أو كثيراً ، بالنظرة التي تجرها معها اللغة العـــربية مـــنذ تدوينها ، أي منذ عصر التدوين ذاته "[176]. ويشير صـــراحة إلى تبنيه آراء سابير في هذه القضية[177]. ثم يذهب في نقد عـــلماء النحو واللغة الذين سجلوا اللغة وهو محق في بعض نقده لكن نغمة هذا النقد هي التي يمكن أن تخرجه من حدود الموضوعية .

ويعـــود في كتابه الآخر " بنية العقل العربي " إلى هذه المسألة فيقول : " وإذا نحن أخذنا بالأطروحة العامة المقبولة الآن لدى علماء

السيميائيات والأثنولوجيا اللسانية ، والقائلة : " إن منظومة لغة ما (الشيء الذي يعني ليس فقط مفرداتها ، بل أيضاً نحوها وتراكيبها) تؤثر في طريقة رؤية أهلها للعالم وفي كيفية مفصلتهم له وبالتالي في طريقة تفكيرهم أمكن القول إن الكلمة التي يرجع بها إلى معناها اللغوي إنما يطلب مدلولها كما كان يتحدد داخل المنظومة اللغوية التي تنتمي إليها ، وبالتالي فهي لابد أن تحمل معناها اللغوي قليلاً أو كثيراً من خصائص رؤية أهلها للعالم وكيفية مفصلتهم له وطريقة تفكيرهم في ظواهره وحوادثه "[178].

وهذه الأطروحة كما قدمنا لم تعد قائمة منذ زمن ليس بالقصير . فلذلك لا يمكن البناء عليها . ومن المسائل التي يفسرها بناء على هذه الأطروحة أنه يرى أن غياب مقولة (الملكية) من العربية " هو غياب ينسجم مع التصور العربي الإسلامي الذي يجعل الملك والملكية لله وحده ، فالإنسان لا يملك الأشياء وإنما يتصرف فيها بوصفها من ملكوت الله "[179].

والدليل على أن هذا التحليل لا يصح هو : أن غياب مقولة (الملكية) في العربية سابق على الإسلام ، إذ هو من خصائص العربية من قبل أن يكون هناك تصور إسلامي .

كما يرجع خصائص الزمن في العربية إلى " بيئة العرب الذين جمعت منهم اللغة ، بيئة البادية والصحراء ، إن زمن الصحراء هو زمن الحل والترحال يتجدد بالحوادث والمشاهد والأمكنة وأنواع المعاناة فهو بمثابة مكان للحدث ، تماماً مثلما أن المكان هو موضوع حدوث الشيء "[180].

وعندما يريد الكشف عن (الأصول) الدفينة التي تشد إليها

الصورة (العالمة) للبيان رؤية ومنهجاً فإنه يجدها " في السلطة المرجعية الأولى والأساسية التي تحكم التفكير البياني العربي ، سلطة اللغة العربية. ونحن عندما نقول " اللغة " لا نقصد اللغة كمجرد أداة للتواصل بل اللغة كحامل للثقافة "[181].

وكمثال على تلك المبادىء المرجعية التي تحكم الرؤية البيانية العربية للعالم ، يتحدث عن مبدأ الانفصال ومبدأ التجويز فيرى أن لهما أصلاً في عالم العرب . فإذا " نحن فحصنا بيئة الأعرابي الجغرافية والاجتماعية من زاوية الاتصال والانفصال وجدنا الانفصال يطبع معطياتها : فالطبيعة رملية ، والرمل حبات منفصلة مستقلة ، مثلها مثل الحصى والأحجار والطوب المؤلف منها كل الاجسام في الصحراء وحدات مستقلة ، والعلاقات التي قد تربطها علاقات المجاورة لا التداخل وبالجملة فالعلاقات في مجتمع رعوي هي علاقات انفصال. أما الاتصال فهو من خصائص مجتمع المدينة ومن مميزات البيئة البحرية

من هنا كانت الرؤية البيانية للزمان والمكان ، الرؤية التي تحملها اللغة العربية معها ، رؤية تقوم على الانفصال وليس الاتصال"[182].

وكذلك فإن مبدأ التجويز في الثقافة العربية ينبع من كون "المبدأ الذي يؤسس وعي سكان هذه البيئة لن يكون السببية ولا الحتمية بل سيكون : الجواز ، كل شيء جائز ، الإطراد قائم فعلاً ، ولكن التغير المفاجيء الخارق للعادة ممكن في كل لحظة "[183]. وذلك بسبب أنه على الرغم من رتابة الصحراء إلاّ أنها تتعرض لتغيرات مفاجئة .

إن عمل الجابري النقدي للثقافة العربية في شقها البياني يقوم على أطروحة عن اللغة وصلتها بالفكر ثبت بطلانها ، فلابد من إعادة النظر في كل الأحكام التي توصل إليها .

ومـــن أجمـــل الكتب التي صدرت حديثاً كتاب ألفه اللساني الأمـــريكي المعاصر ديفد جستس بعنوان : " دلالة الأشكال في اللغة العربية مقارنة باللغات الأوروبية "[184].

ويعـــرض فيه المؤلف كثيراً من الخصائص التي يعتقد كثير من الـــناس أنها خاصة باللغة العربية ثم يحلل هذه الخصائص ويقارن اللغة العـــربية باللغات الأوروبية ويدلل على أن هذه الخصائص التي يراها كـــثير مـــن الـــناس خصائص قبيحة خاصة بالعربية موجودة في هذه اللغات التي يزعمون أنها متقدمة وجميلة . ويرد خاصة على آراء شوبي الـــتي عرضنا لها من قبل ويبين أن تلك الخصائص ليست متخلفة أولاً وهي موجودة في اللغات الأخرى ثانياً .

طبيعة التحيز وأثره :

في العرض السابق لبعض أنواع التحيز وجدنا أن الحضارات تتشـــابه فيهـــا ، ويمكن أن يعد هذا دليلاً على عدم صحتها . إذ لو كـــانت صـــحيحة في جوهرها لصح أن توجد بالضرورة في لغة واحـــدة وحسب . وقد نشأت هذه التحيزات بسبب عوامل عديدة منها العرق : إذ ظنت بعض الأمم أنها عرقياً من سلالة تختلف عن بـــني الإنســـان الآخـــرين ؛ وكذلك بسبب الدين : إذ ربطت بعض الحضـــارات بـــين كتبها المقدسة واللغة التي حملتها ، فرأت أن كون كـــتابها المقدس مكتوباً بهذه اللغة إنما هو دليل على اختيار إلهي لها .

كما أن الجهل بطبيعة اللغة وعملها لعب دوراً في تغذية هذه التحيزات .

وبعد تقدم العلوم الأحيائية (البيولوجية) ثبت أن الأعراق لا يتميز بعضها عن بعض ؛ وأن التمايز الحضاري إنما يعود إلى أشياء مكتسبة نتيجة لظروف خارجية لا صلة لها بالعرق . وبذلك بدأ يشكك في إسهام هذا العامل في كل المجالات ، ومنها اللغة . وقد أدى التقدم في الدراسات اللسانية كذلك نتيجة للإنفتاح على اللغات المختلفة المتباعدة سلالياً ومكانياً ، إلى نتيجة مماثلة : فقد وجد أن اللغات جميعها أنظمة متكافئة من حيث التعقيد البنيوي ، ومن حيث وفاؤها بأغراض متكلميها ، بل إن البحث اللساني برهن منذ زمن ليس بالقصير على أن اللغات مهما بدت مختلفة في ظاهرها إنما هي تشكلات لشيء واحد عام لدى بني الإنسان . ومن النظريات اللسانية التي تعمل في هذا الاتجاه منذ أكثر من خمس وثلاثين سنة النظرية التوليدية التي كان اللساني الأمريكي نوام تشومسكي مؤسسها .

أما ارتباط اللغة بالدين ، فإننا نرى القرآن الكريم مع تأكيده على أنه أنزل باللسان العربي إلا أنه يوضح في بعض الآيات أن كونه بهذا اللسان ليس إلاّ انسجاماً مع السنة الإلهية في مخاطبة الله كل قوم باللسان الذي يتكلمونه . فنزوله باللغة العربية إذن ليس اختصاصاً لها من دون اللغات الأخرى .

ويجب أن يشار هنا إلى أن التخلص من أنواع التحيز هذه لا يعني أبداً الانتقاص من أي لغة ، كما يجب ألا يؤدي إلى إضعاف الانتماء إلى أي واحدة منها .

فاللغة العربية مثلاً نالت مكانة متميزة لنـــزول القرآن الكريم بها ؛ إذ كان أول نص نثري طويل متكامل فيها يحمل مضامين متميزة لا عهد لهذه اللغة بها . وقد أخرجها هذا النص من كونها لغة محصورة في الجزيرة العربية إلى لغة عالمية كانت في إبان ازدهار الحضارة العربية الإسلامية لغة العلم والحضارة . وهي مقدسة بسبب وجود هذا النص المقدس فيها . فالإنتماء إليها هو انتماء لهذا النص نفسه .

ويجـــب ألا يؤخذ هذا على أنه تحيز لهذه اللغة ؛ فهذا الانتماء ليس سببه الاعتقاد بأنها تتميز على غيرها من حيث أنظمتها اللغوية ، بـــل هـــو انتماء حضاري مشروع بسبب ارتباطها بالثقافة والتاريخ والدين للأمة في خلال ما يزيد على ألف وأربعمائة سنة . وهذا فرق جوهـــري بـــين الـــتحيز والانتماء . فالتحيز يقتضي بالضرورة رفع مـــنـــزلة لغـــة والغض في الوقت نفسه من اللغات الأخرى ؛ أما الانتماء إلى لغة معينة فهو انتماء لها ليس لأسباب لغوية ، بل لأسباب حضارية وتاريخية ، وهو لا يقتضي النظر إلى اللغات الأخرى أنها أقل منها . فانتماء الأقوام الآخرين للغاتهم بالكيفية نفسها أمر مشروع .

إن لعـــدم الـــتحيز آثاراً موجبة لا يمكن حصرها : فهو على المســـتوى الإنســـاني سيقضـــي على أحد أسباب التمييز بين البشر ، وســـيقود إلى اكتشـــاف أن البشـــر متشابهون في هذه الظاهرة التي يشـــتركون فيها ؛ وقد يقود ذلك إلى إعادة التفكير في كل الظواهر الأخرى التي يظنون أنها تصنفهم إلى فصائل مختلفة .

ومن آثاره على المستوى اللغوي ، أن يتحقق المشتغلون بعلوم الـــلغة أنه يمكن أن تدرس اللغات جميعها بمناهج واحدة ؛ إذ لا تختص لغـــة بصفة تخرجها عن إمكان دراستها بهذه المناهج . وقد تحقق تقدم

كـــبير الآن في هذا الوجه ؛ إذ وجد أن الاختلافات بين اللغات وليدة أسباب قليلة يمكن تحديدها[185].

أما فيما يخص اللغة العربية ، فإن زوال هذه التحيزات سوف يـــؤدي بنا إلى النظر إليها على أنها إنسانية وحسب ، تشبه غيرها في بنيـــتها والسنن التي تخضع لها في تركيبها ووظائفها . كما سيؤدي بنا ذلـــك إلى إعادة النظر إليها نظرة موضوعية واقعية ، تأخذ في الاعتبار تاريخهـــا المشـــرق وارتـــباطها الوثيق بالقرآن الكريم ، كما تأخذ في الاعتبار كونها لغة يتكلمها البشر وتؤثر في حياتهم .

ومـــن أنـــواع التحيز التي لم أتكلم عنها في العربية ويمكن أن يشـــار إليها في هذا السياق ، ظاهرة وقف الاحتجاج بعد سنة 150 للهجرة في الحاضرة و400 في البادية . فقد كان منهج العلماء العرب الأوائل في جمع اللغة منهجاً محكوماً بظروف تاريخية ومعرفية معينة . إذ حـــدد أولئك منذ البداية مستوىً واحداً وحسب من مستويات اللغة وعـــدوه المستوى الجدير بالتدوين . وذلك المستوى هو مستوى اللغة الفصـــحى والمتمثل في الشعر منه خاصة . كما حددوا الذين يمكن أن تؤخـــذ لغـــتهم حجـــة تحديداً أخرج مناطق وقبائل كثيرة في الجزيرة العربية من مجال اهتمامهم . ومع ذلك نراهم يقولون إنه فاتهم الشيء الكـــثير مـــن الـــلغة . وعندما وضعوا قواعد اللغة رفضوا كثيراً من الظواهر التي لا تتماشى مع تلك القواعد التي وضعوها . واختتم هذا المنهج بأن وضعوا حداً زمنياً لا يمكن الاحتجاج بكلام من جاء بعده .

وهـــذا التحديد ربما كان وراءه أسباب متعددة : فقد يكون مـــن بينها أنهم كانوا مهتمين فقط باللغة الفصحى التي تماثل اللغة الـــتي أنزل بها القرآن الكريم وذلك لأغراض عملية ، إذ لا يمكن لهم

أن يقعـــدوا لكـــل ما يسمعون وهو ما يتطلب زمناً طويلاً ودراسات مفصلة حتى يتبينوا المستويات المتعددة للغة واللهجات المختلفة فيها . ويضاف إلى ذلك ، عدم وجود الوسائل التي تمكن من العمل الميداني المستقصي ؛ فعلى الرغم مما يقال عن خروج بعض اللغويين إلى بوادي الجزيرة العربية ، فإن تاريخ النشاط اللغوي يوحي بأن أغلب ما سجل مـــن كـــلام العرب كان في مدينتي البصرة والكوفة اللتين كان يرد عليهما الرواة أنفسهم .

كمـــا أن دراســـة المصادر الأولية تبين أن أكثر جامعي اللغة كانوا يسجلون المواد اللغوية نفسها ، ويتضح ذلك من تكرار الأخبار والروايات والمواضيع اللغوية في أكثر من مصدر .

وقـــد أدى وقـــف الاحـــتجاج بعد الفترة المبكرة من تأريخ الإســـلام إلى إخـــراج أكـــثر مراحل اللغة العربية ازدهاراً في العصر العباســـي عندما أصبحت لغة العلم والحضارة . ويكفي أن نعرف أن المعـــاجم العـــربية لا تظهر فيها آلاف الكلمات التي جدت في ذلك العصر ؛ بل إنها لا تحوي كلمات أساسية أسهمت بها الحضارة العربية في تأريخ الإنسانية ، وذلك مثل كلمة الصفر وكلمة الجبر .

وقد نشأ مع مرور الوقت نشاط لغوي كان قصده التشريع لما ينـــبغي أو لا ينـــبغي اســـتعماله . وصنفت الكلمات والأساليب إلى درجات من حيث الفصاحة وجواز الاستعمال . لكن هذه الطريقة في التصـــنيف تعـــتمد على أساس واهٍ إذ إنها تقوم على فرضية أن اللغة أحصيت واستقصيت ، أو أن الاحتجاج لا يجوز بكلام فئة من الناس. ومن الجدير بالذكر أننا نجد هذا النوع من النشاط اللغوي عند الأمم كـــلها ، وعندما يستقصى أمره نجد أنه مخطىء في كثير مما يصل إليه .

وتكفي الإشارة هنا إلى ما يقوله اللسانيون الغربيون عن هذا النشاط في لغاتهم إذ يرون أن هناك كثيراً مما يمنع استعماله وهو سائد في كلام الناس قديماً وحديثاً وحتى في كلام هؤلاء المنادين بما يسمى تنقية اللغة[186].

وفي العربية أيضاً يمكن أن يدلل على خلل هذه الفرضية بأمثلة لا حصر لها . وسأورد مثالين فقط للتدليل على ذلك : (1) ورد في المزهر أن أفعل التفضيل من " خير " (أي أخير) لغة رديئة. غير أن هذه الكلمة وردت في حديث نبوي في صحيح البخاري هي وكلمة " خير " كلتاهما . وهذا يشير إلى أن استعمال أي واحدة منهما جائز[187]، (2) يستعمل الفعل (حلق) متعدياً لمفعول غير إنسان : فيجوز أن يقال : حلق زيد شعره ، وحلق زيد شعر فلان ، وحلق زيد ضأنه ؛ ولكنه لم يرد في المعاجم كلها جواز استعمال : حلق زيداً خالداً ، مثلاً . وقد اعترض مرة أحد الزملاء على استعمالي هذا الفعل متعدياً للإنسان بهذه الحجة . وعندما رجعت إلى تاريخ الطبري عند كلامه عن غزوة الحديبية وجدت أن هذا الفعل عَدي إلى الإنسان في جملة هي : " فدعا (أي الرسول صلى الله عليه وسلم) حالقه فحلقه "[188]، أي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حلقه إنسان آخر . كما وجدت هذا الاستعمال عند الطبري في مواضع أخر[189]. ووجدت هذا الاستعمال في كتاب الأغاني أيضاً : " وكان قد ضربه وحلقه "[190]، وكذلك في الأغاني : " عزل الوليد بن عبدالملك عبيدة بن عبدالرحمن عن الأردن وضربه وحلقه "[191]، وورد في كتاب العين قوله في تفسير عبارة " عقرى حلقي "، أنه قال : " واشتقاقه من أنها تحلق قومها وتعقرهم "[192]، وهو توسع في

الاستعمال يتجاوز تعدية الفعل إلى المفعول الإنسان في شيء يتعلق بما ينصرف له الفعل أساساً .

إن منع هذين الإستعمالين مثلاً لم يأت إلاّ من سيطرة فكرة أنه بالإمكان أن نشرع للغة وأن نعين للناس ما يمكن أن يقولوه وما لا يمكن أن يقوله . وتجدر الإشارة إلى أن هذا التشريع لا يأخذ في الاعتبار أن كثيراً مما يمنع يمكن أن نجده في قواميس اللغة التي تعطى سلطة كبرى . فقد تتبع محمد خليفة التونسي ، مثلاً ، كثيراً مما ورد عدم إجازته ووجد أن تلك الأمثلة الممنوعة يمكن أن نجدها في أمثلة تعود إلى عصور الاحتجاج[193] .

كما أن القواميس نفسها مع هذه السلطة الكبرى التي تعطى لها لا تحوي كل الكلام العربي . وقد سبق أن رأينا أن استعمال الفعل " حلق " متعدياً للمفعول الإنسان لا يرد في أي قاموس عربي مع أنه موجود في أمثلة تعود إلى عصور الاحتجاج . وهذه السلطة التي تعطى للقواميس لا تأخذ في الاعتبار أن الذي جمعها أناس مثلنا قد يند عنهم كثير من الألفاظ . فالاحتجاج بالقواميس لذلك ليس حجة في بعض الأحيان .

وقد أدى هذا المنع في تاريخ اللغة العربية إلى التضييق على مستعملي اللغة مما حد من الإبداع والارتجال . ويجب أن نتذكر أن القرآن الكريم أتى بكلمات كثيرة لم تكن اللغة العربية تعهدها . كما غير من معاني كثير من الكلمات المستعملة ، بل لقد ورد في القرآن الكريم أمثلة كثيرة تخرج على القياس الصرفي مثل كلمة " استحوذ " التي كان يجب أن تكون قياساً " استحاذ "[194] . فلنا به إذن قدوة حسنة .

ولذلـــك فإنـــنا إذا نظرنا إلى تاريخ اللغة العربية فإننا نجد أن القواعد التي أرساها اللغويون وجامعو اللغة الأقدمون ملزمة للنموذج الذي درسوه فقط ، أما نحن خاصة في هذا العصر فإنه يجب علينا ألاّ تقيـــد حريتنا الحدود والمقاييس التي وضعوها ؛ بل علينا الآن أن نعيـــد الـــنظر في كثير مما عملوه ، وربما قادنا ذلك إلى صياغة النحو العربي في صورة تكون أكثر ملاءمة لطبيعة اللغة العربية .

إن الـــتحيز للقديم كان وراء كثير من النشاطات اللغوية في القديم مع أن هذا التحيز مثله مثل غيره من التحيزات لا يسنده دليل مقنع .

التعليقات

1) Peter Farb, Word play (New York : Bantam Books 1973), pp. 354 357.

2) Noam Chomsky, Knowledge of language : its origion structure, and use. (New York : praeger, 1986), PP. xxvii-xxviii, pp. 276 287.

3) Maurice Olender, The languages of Paradise : Race, Religion, and philosophy in the 19th century, Translated by Arthur Goldhammer (Cambridge, London : Harvard University press, (1992).

4) المرجع نفسه ، ص 33 .

5) المرجع نفسه ، ص 83 .

6) المرجع نفسه ، ص ص 84 85 .

7) المرجع نفسه ، ص 98 .

8) المرجع نفسه ، ص ص 115 135 .

9) Ferdinand de Saussure, Course in General Linguistics, Translated by Wade Baskin (New York : Fontana/collins, 1959), p. 199.

وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية عدة ترجمات من أحسنها الترجمة التي قام بها صالح القرمادي ومحمد الشاوش ومحمد عجينة ، ونشرها في تونس الدار العربية للكتاب ، 1985م.

10) المرجع نفسه ، ص 191 .

11) John Lyons, language and linguistics : An Introduction (Cambridge : Cambridge University press, 1981), p. 305.

12) المرجع نفسه ، ص 306 .

13) المرجع نفسه ، ص 307 .

14) Michael Devitt and Kim Sterelny, Language and reality : An Introduction to the philosophy of language (Oxford : Basil Black well, 1987), pp. 173 182.

15) R.A. Hudson, Sociolinguistics (Cambridge : Cambridge University, Press, 1980), pp. 103 105.

16) المرجع السابق ، ص 21 .

17) Keith Allan, Linguistic meaning, (London and New York : Rouledge and Kegan Paul, 1986), Vol. 1, p, 123.

18) Herbert H. Clark and k Eve V. Clark, psychology and language : An Introduction to psycholinguistics (New York : Harcourt Brace Javanovich, Inc. 1977), pp. 554 555.

19) Robert A. Hall, Jr., Ieave your Language Alonc ! (Ithaca, N. Y : linguistica 1950), pp. 240 249.

20) J. K. Chambers and Peter Trudgill, Dialectology (Cambridge : Cambridge University press, 1980), p. 103.

21) انظر في ذلك : جون ليونز ، المرجع السابق ، ص ص 24 27 و266 281 ؛ وكذلك ريتشـــارد هدسون ، المرجع السابق ، ص 191 230 ؛ وكذلك، روبرت هول ، المرجع السابق .

22) سورة البقرة ، الآية 31 .

23) أبـــو الفتح عثمان بن جني ، الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار (بيروت :دار الهدى للطباعة والنشر ، الطبعة الثانية ، د.ت) ج1 ، ص 41 .

24) المرجع نفسه ، ج1 ، ص 44 47 .

25) المرجع نفسه ، ج1 ، ص 47 .

26) المرجع نفسه ، ج1 ، ص 47 .

27) عـــبدالرحمن جلال الدين السيوطي ، المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، شرحه وضبطه وصححه وعـــنون موضـــوعاته وعلق حواشيه ، محمد أحمد جاد المولى وعلي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضـــل إبراهيم (القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، د.ت)، ج1 ، ص 28 .

28) المرجع نفسه ، ج1 ، ص 30 .

29) المرجع نفسه ، ج1 ، ص 30 .

30) المرجع نفسه ، ج1 ، ص 34 .

31) المرجع نفسه ، ج1 ، ص ص 34 – 35 .

32) محمد ناصر الدين الألباني ، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة (الرياض : مكتبة المعارف ، الطبعة الأولى للطبعة الجديدة ، 1412هـ 1992م) م1 ، ص 679 .

33) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، البيان والتبيين ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون (القاهرة : مكتبة الخانجي بمصر ، الطبعة الرابعة ، 1395هـ 1975م)، ج3 ، ص 290 .

34) محمد ناصر الدين الألباني ، المرجع السابق ، ج1 ، ص 293 .

35) المرجع نفسه ، ج1 ، ص 298 .

36) المرجع نفسه ، ج1 ، ص 299 .

37) جمال الدين بن منظور ، لسان العرب ، تحقيق عبدالله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي (القاهرة : دار المعارف ، د.ت) ج1 ، ص 11 .

38) السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي ، تاج العروس من جواهر القاموس ، تحقيق عبدالستار أحمد فراج (الكويت : مطبعة الحكومة ، 1385هـ 1965م)، ج1 ، ص 13 .

39) أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري النحوي ، كتاب إيضاح الوقف والإبتداء في كتاب الله عز وجل ، تحقيق محيي الدين عبدالرحمن رمضان (دمشق : مجمع اللغة العربية بدمشق / 1390هـ 1971م)، ج1 ، ص 21 .

40) ابن منظور ، المرجع السابق ، ج1 ، ص 11 .

41) المرجع نفسه ، ج1 ، ص 13 .

42) علي بن إسماعيل بن سيده ، المحكم والمحيط الأعظم في اللغة ، تحقيق مصطفى السقا وحسين نصار (القاهرة : شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، 1377هـ 1958 م)، ج1 ، ص 3 .

43) أبو الفتح عثمان بن جني ، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، تحقيق علي النجدي ناصف وعبدالحليم النجار وعبدالفتاح إسماعيل شلبي ، أعده للطبعة الثانية وقدم لها محمد بشير الأدلبي (اسطامبول : دار سزكين للطباعة والنشر ، 1406هـ 1986م)، ج1 ، ص 31 .

44) أبو بكر محمد الطيب الباقلاني ، إعجاز القرآن ، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر (بيروت : مؤسسة الكتب الثقافية ، الطبعة الأولى ، 1406هـ 1986م)، ص 32 .

45) المرجع نفسه ، ج1 ، ص ص 54 55 .

46) المرجع نفسه ، ج1 ، ص 138 .

47 الإمام المطلبي محمد بن إدريس الشافعي ، الرسالة ، تحقيق أحمد محمد شاكر (القاهرة : 1358 هـ 1939م)، ص 42 .

48) السيوطي ، المرجع السابق ، ج1 ، ص 64 .

49) الشافعي ، المرجع السابق ، ص 46 .

50) الجاحظ ، المرجع السابق ، ج3 ، ص 29 .

51) الإمام أبو بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني النحوي ، كتاب دلائل الإعجاز ، قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر ، (القاهرة : مكتبة الخانجي ، 1404هـ 1984م)، ص 577 .

52) المرجع نفسه ، ج1 ، ص 575 .

53) أبو حيان التوحيدي ، كتاب الإمتاع والمؤانسة ، صححه وضبطه وشرح غريبه ، أحمد أمين وأحمد الزين ، (بيروت : دار مكتبة الحياة ، د.ت) ج1، ص ص 77 78 .

54) أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي ، لحن العامة ، تحقيق عبدالعزيز مطر ، (القاهرة : دار المعارف ، 1981م)، ص 34 .

55) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، رسائل الجاحظ ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون ، (القاهرة ، مكتبة الخانجي ، 1384هـ – 1964م)، ج ع ، ص 237 .

56) أبو عثمان سعيد بن محمد المعافري السرقطي ، كتاب الأفعال ، تحقيق حسين محمد شرف ومحمد مهدي علام ، (القاهرة : الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، 1395هـ 1975 م)، ج1 ، ص 51 .

57) أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الفارابي ، ديوان الأدب ، تحقيق أحمد مختار عمر وإبراهيم أنيس ، (القاهرة : الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، 1394هـ 1974م)، ج1 ، ص ص 71 72 .

58) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، جامع البيان عن تأويل القرآن ، (القاهرة : شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، الطبعة الثالثة ، 1388هـ 1968م)، ج1، ص 7 .

59) محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي ، تفسير البحر المحيط ، (بيروت : دار الفكر ، الطبعة الثانية ، 1398هـ 1978م)، ج5 ، ص 405 .

60) وصف القرآن الكريم بأنه مبين : في سورة المائدة ، الآية (15)؛ وفي سورة الحجر ، الآية (1)؛ وفي سورة النحل ، الآية (103) ؛ وفي سورة الشعراء ، الآية (195)؛ وفي سورة النمل ، الآية (1)؛ وفي سورة يس ، الآية (69)؛ وفي سورة النساء ، الآية (174) ، وفي سورة

يوسف ، الآية (1)؛ وفي سورة الشعراء ، الآية (2)؛ وفي سورة القصص ، الآية (2)؛ وفي سورة الزخرف ، الآية (2)؛ وفي سورة الدخان ، الآية (2) ؛ وفي سورة آل عمران ، الآية (138) .

كما وصف بأنه " قرآن عربي " : في سورة يوسف ؛ الآية (2)؛ وفي سورة طه ، الآية (113)؛ وفي سورة الزمر ، الآية (28)؛ وفي سورة فصلت ، الآية (3)؛ وفي سورة الشورى، الآية (7)؛ وفي سورة الزخرف ، الآية (3) .

ووصف بأنه " لسان عربي " في سورة الأحقاف ، الآية (12) .

ووصف بأنه " حكم عربي " في سورة الرعد ، الآية (37) .

ووصف بأنه " عربي مبين " في سورة النحل ، الآية (103)؛ وفي سورة الشعراء ، الآية (195) .

61) سورة يوسف ، الآية (1) .

62) الطبري ، المرجع السابق ، ج12 ، ص 149 .

63) سورة يوسف ، الآية (2) .

64) الطبري ، المرجع نفسه ، ج12 ، ص 149 .

65) سورة الشعراء ، الآية (195) .

66) الطبري ، المرجع نفسه ، ج19 ، ص 112 .

67) سورة النحل ، الآية (103) .

68) أبو عبدالله محمد الأنصاري القرطبي ، تفسير القرطبي ، (القاهرة : مطبعة دار الكتب المصرية، (1359هـ 1940م)، ج10 ، ص 179 .

69) سورة يوسف ، الآية (2) .

70) القرطبي ، المرجع نفسه ، ج10 ، ص 179 .

71) سورة يوسف ، الآية (1) .

72) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، تحقيق عبدالعزيز غنيم ومحمد عاشور ومحمد البنا (القاهرة : سلسلة كتاب الشعب ، 1390هـ 1971م)، ج4 ، ص 294 .

73) سورة الزخرف ، الآية (2) .

74) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، (القاهرة : مطبعة البابي الحلبي وشركاه ، الطبعة الأولى ، د.ت)، ج 25 ، ص ص 17 18 .

75) سورة آل عمران ، الآية (103) .

76) سورة الزخرف ، الآية (44) .

77) سورة الأنعام ، الآية (124) .

78) إسماعيل بن محمد العجلوني ، كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ، صححه أحمد القلاس ، (حلب : مكتبة التراث الإسلامي ، د.ت)، ج1 ، ص 232 .

79) الألباني ، المرجع السابق ، ج4 ، ص 185 .

80) الجاحظ ، رسائل الجاحظ ، ج4 ، ص 117 ؛ ص 238 ؛ ابن منظور ، اللسان ، ج1 ، ص 395 : أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب ، مجالس ثعلب ، شرح وتحقيق عبدالسلام محمد هارون ، (القاهرة : دار المعارف ، الطبعة الثالثة ، 1969م) ، ج1 ، ص 11 . بلفظ " أنا أفصح العرب ، تربيت في أخوالي بني سعد ، بيد أني من قريش) .

81) أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري ، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، ص ص 253 254 .

82) السيوطي ، المرجع السابق ، ج1 ، ص ص 209 210 .

83) السيوطي ، المرجع نفسه ، ج2 ، ص 483 .

84) السيوطي ، المرجع نفسه ، ج1 ، ص 211 ؛ وفي المزهر ، ج2 ، ص 483 يقول أبو عمرو : " أفصح العرب عليا تميم وسفلى قيس ".

85) أبو عبدالرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي ، كتاب العين ، تحقيق مهدي المخزومي السامرائي ، (بغداد : دار الرشيد للنشر ، 1982م)، ج1 ، ص 169 .

86) السيوطي ، المرجع السابق ، ج2 ، ص 483 .

87) السيوطي ، المرجع السابق ، ج1 ، ص 211 .

88) السيوطي ، المرجع السابق ، ج1 ، ص 211 .

89) السيوطي ، المرجع السابق ، ج1 ، ص 212 .

90) أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ، الكامل ، حققه وعلق عليه وصنع فهارسه ، محمد أحمد الدالي، (بيروت : مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ، 1406هـ 1986م)، ج2 ، ص 765 .

91) أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، الفائق في غريب الحديث ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي ، (بيروت : دار المعرفة ، الطبعة الثانية ، د.ب) ، ج3 ، ص 313 .

92) الجاحظ ، المرجع السابق ، ج3 ، ص 212 .

93) محمد بن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، قرأه وشرحه أبو فهر محمود أحمد شاكر ، (القاهرة : مطبعة المدني ، 1400هـ 1980م)، ج1 ، ص 61 .

94) وردت هـذه الرواية في تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، وفي الطبعة الأوروبية بعناية وليم رايت ، وفي بغيـة الأمل لسيد المرصفي ، وفي شرح المفصل لابن يعيش ، وفي خزانة الأدب : ويقول ابن يعيش في شرح المفصل : " وصف هذا الجرمي قومه بالفصاحة وعدم اللكنة والتباعد عـن هـذه الـلغات "، يعيش بن علي بن يعيش النحوي ، شرح المفصل ، (بيروت : عالم الكتب، القاهرة : مكتبة المدني ، د.ت)، ج9 ، ص 49 .

95) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج1 ، ص 243 .

96) أبـو الفـرج الأصفهاني علي بن الحسين ، كتاب الأغاني ، (بيروت ، مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، مصور عن طبعة دار الكتب ، د.ت (طبعة دار الكتب ، 1383هـ 1963م)، ج8 ، ص 39 41 .

97) الجرجاني ، المرجع السابق ، ص 399 .

98) الجرجاني ، المرجع نفسه ، ص ص 458 459 .

99) أبـو عـبيدة معمر بن المثنى التميمي البصري ، كتاب النقائض : نقائض جرير والفرزدق ، باعتناء المستشرق الإنجليزي بيفان (ليدن : مطبعة بريل ، 1905م)، ج2 ، ص 89 .

100 أبو الفرج الأصفهاني ، المرجع السابق ، ج1 ، ص 407 .

101) أبو عبيدة ، المرجع السابق ، ج2 ، ص 39 .

102 أبو عبيدة ، المرجع السابق ، ج2 ، ص 40 .

103) أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري ، الجامع الصحيح ، تحقيق محب الدين الخطيب ومحمد فـؤاد عبدالباقي وقصي محب الدين الخطيب ، (القاهرة : المكتبة السلفية ، الطبعة الأولى ، 1400هـ)، كتاب فضائل القرآن ، ج3 ، ص ص 337 338 .

104) رشدي عليان " القرآن الكريم والأحرف السبعة "، مجلة المورد ، ج9 ، العدد الرابع 1401 هـ 1981م)، ص ص 17 26 .

105) محمـد بـن سعد بن منيع الهاشمي البصري المعروف بابن سعد ، الطبقات الكبرى ، دراسة وتحقيـق محمـد عبدالقادر عطا ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى الكاملة)، (1410هـ - 1990م)، ج3 ، ص 111 .

106) البخاري ، المرجع السابق ، ج3 ، ص 341 : ج3 ، ص 34 ؛ ج3 ، ص ص 44 45.

107) ابن جني ، الخصائص ، ج3 ، ص ص 30 31 ؛ ج2 ، ص 8 .

108) ابن الأنباري ، كتاب الوقف والابتداء ، ج1 ، ص ص 39 40 .

109) ابن الأنباري ، المرجع نفسه ، ج1 ، ص ص 42 43 .

110) ابن الأنباري ، المرجع نفسه ، ج1 ، ص ص 51 52 .

111) ابن الأنباري ، المرجع نفسه ، ج1 ، ص 14 .

112) ابن الأنباري ، المرجع نفسه ، ج1 ، ص ص 13 61 .

113) ابن سلام ، المرجع السابق ، ج1 ، ص 12 .

114) أبــو عبيدة ، المرجع السابق ، ج2 ، ص ص 1025 1026 ، وربما كان المقصود "وقد تعدى الصحاحَ مباركَ الجربُ ".

115) الباقلاني ، المرجع السابق ، ص 48 .

116) ابن جني ، المرجع السابق ، ج1 ، ص 386 .

117) أبــو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي ، طبقات النحويين واللغويين ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، (القاهرة :دار المعارف ، الطبعة الثانية ، 1984م)، ص 39 .

118) أبو بكر الزبيدي ، المرجع نفسه ، ص 45 .

119) ابن جني ، المرجع السابق ، ج2 ، ص ص 5 8 .

120) ابن سعد ، المرجع السابق ، ج2 ، ص 16 .

121) ابــن سعد ، المرجع نفسه ، ج6 ـــ، ص 162 . وقد درس هذه الفترة المبكرة دراسة جيدة محمد خير الحلواني في كتابه المفصل تاريخ النحو ، (بيروت : مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى 1399هـــ 1979م) .

122) الحلواني ، المرجع نفسه ن ج1 ، ص 85 .

123) أبو بكر الزبيدي ، المرجع السابق ، ص 22 .

124) أبــو بكــر محمد بن الحسن بن دريد ، الاشتقاق ، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون ، (القاهرة : مكتبة الخانجي ، 1378هـــ 1958)، ص 4 .

125) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج3 ، ص ص 5 124 : الجاحظ ، الحيوان ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون ، (القاهرة : شركة ومطبعة البابي الحلبي ، الطبعة الأولى ، 1357هـــ) ، ج1 ، ص ص 74 75 ؛ ج2 ، ص 245 : ، ج2 ، ص 245 ؛ ج3 ، ص ص 212 214: الجاحظ رسائل الجاحظ ، ج1 ، المقدمة : الجاحظ ، رسائل الجاحظ ، ج1 ، ص ص 30 31 .

126) الجرجاني ، المرجع السابق ، ص ص 575 589 .

127) أبــو حيان التوحيدي ، المرجع السابق ، ج1 ، ص ص 70 96 ؛ ج1 ، ص ص 108 128 .

128) ابن جني ، الخصائص ، ج1 ، ص ص 242 244 .

129) الألباني ، المرجع السابق ، ج1 ، ص 293 ؛ ج1 ، ص 301 ؛ ج1 ، ص 512 ؛ ج1 ، ص 573؛ ج2 ، ص 24 ؛ ج2 ، ص 46 ؛ ج2 ، ص 47 ؛ ج2 ، ص 105 ؛ ج2 ، ص 157 ؛ ج2 ، ص 158 ، ج2 ، ص 159 ؛ ج2 ، ص 161 ؛ ج2 ، ص 162 ؛ ج 2 ، ص 163 ؛ ج2 ، ص 201 ؛ ج3 ، ص 339 ؛ ج3 ، ص 340 ؛ ج3 ، ص 536؛ ج4 ، ص 317 ، وغير ذلك.

130) الجاحظ ، رسائل الجاحظ ، ج4 ، ص ص 114 128 .

131) الجاحظ ، المرجع نفسه ، ج1 ، ص 213 ؛ ج3 ، ص 46 .

132) الألباني ، المرجع السابق ، ج1 ، ص 512 ؛ ج1 ، ص 573 ؛ ج2 ، ص 105 ؛ ج2 ، ص 201 ؛ ج3 ، ص 339 ؛ ج3 ، ص 536 ؛ ج4 ، ص 94 ؛ج4 ، ص 147 ؛ ج4 ، ص 185 ،

133) ابن سلام ، المرجع السابق ، ج1 ، ص 4 .

134) ابن سلام ، المرجع نفسه ، ج1 ، ص ص 7 – 8 .

135) ابن سلام ، المرجع نفسه ، ج1 ، ص 46 .

136) ابن سلام ، المرجع السابق ، ج1 ، ص 48 .

137) ابن سلام ، المرجع نفسه ، ج1 ، ص 49 .

138) ابن سلام ، المرجع نفسه ، ج1 ، ص 61 .

139) الجاحظ ، رسائل الجاحظ ، ج1 ، ص 32 .

140) الجاحظ ، المرجع نفسه ، ج1 ، ص 37 .

141) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج1 ، ص 52 .

142) الجاحظ ، المرجع نفسه ، ج1 ، ص 53 .

143) الجاحظ ، المرجع نفسه ، ج1 ، ص 54 .

144) الجاحظ ، المرجع نفسه ، ج1 ، ص ص 96 – 97 .

145) الجاحظ ، المرجع نفسه ، ج1 ، ص 145 .

146) أبو الفرج الأصفهاني ، المرجع السابق ، ج9 ، ص 109 .

147) أبـو محمد علي بن حزم الأندلسي ، الإحكام في أصول الأحكام ، (القاهرة : مطبعة الإمام ، د.ت)، ج1 ، ص 32 ، أشـكر الزميل الدكتور عبدالله الغذامي الذي لفت نظري إلى هذا النص .

148) عبدالرحمن بن محمد بن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، تحقيق المستشرق الفرنسي أ.م. كاترمير ، (باريس ، 1858م) صورة عنها ، بيروت : مكتبة لبنان ، د.ت ، ج3 ، ص 300 .

149) ابن خلدون ، المرجع نفسه ، ج3 ، ص ص 301 302 .

150) الأب انستانس ماري الكرملي ، نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها ، (القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية ، د.ت (1938)، ص 1 .

151) الكرملي ، المرجع نفسه ، ص 165 ، ص 156 .

152) المقدمة Mohammed Ahmad Mazhar, Arabic The source of All Languages, (Nen delenstien : Kraus Thompson Organization limited Repernt). المقدمة .

153) Mazhar, p.i.

154) Mazhar, pp. iii.

155) Mazhar, p.94.

156) T.A. Ismail, Classical Arabic as the Ancestor of Indo-European Languages and Origin of speech (Cairro : Al-Ahram press, 1989).

157) إسماعيل ، المرجع نفسه ، التلخيص العربي للكتاب .

158) حمزة بن قبلان المزيني ، مراجعات لسانية ، (الرياض : النادي الأدبي ، 1410هـ) ، ص ص 119 157 .

159) لويس عوض ، مقدمة في فقه اللغة العربية ، (القاهرة : الهيئة العامة للكتاب ، 1980م) .

160) Naim, Hazim onat, Araicanin Turk Diliyla Kurulusu-1 (T.D.K. Istanbul, 1994).

" تأسيس اللغة العربية على جذور تركية "، نشر المجمع اللغوي التركي ، اسطنبول ، 1944؛ أشكر الزميل الدكتور سعد الشامان الذي لفت نظري إلى هذا الكتاب وترجم لي ملخصاً لآرائه .

161) سمر روحي الفيصل ، المشكلة اللغوية العربية ، شؤون عربية ، 57 ، (آذار / مارس 1989م شعبان 1409هـ) ، ص 162 .

162) الفيصل ، المرجع نفسه ، ص 163 .

163) الفيصل ، المرجع نفسه ، ص 163 .

164) الفيصل ، المرجع نفسه ، ص 163 .

165) الفيصل ، المرجع نفسه ، ص 167 .

166) محمد المنجي الصيادي ، التعريب وتنسيقه في الوطن العربي ، (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، الطبعة الثانية 1982م) ، ص 390 .

167) الصيادي ، المرجع نفسه ، ص 396 .

168) الصيادي ، المرجع نفسه ، ص ص 554 573 .

169) أحمد الحلو " حول واقعنا اللغوي في الماضي والحاضر " المستقبل العربي ، السنة العاشرة ، العدد 106 ، (كانون الأول " ديسمبر " 1987م)، ص ص 67 85 .

170) الحمو ، المرجع نفسه ، ص 70 .

171) الحمو ، المرجع نفسه ، ص 71 .

172) الحمو ، المرجع نفسه ، ص 75 .

174) Raphael Patai, The Arab mind (New York ; Charles Scribners Sons, 1979) pp. 41 42 .

175) منصور الحازمي ، مواقف أدبية ، (الرياض ، دار الصافي 1410هـ). ص ص 187 193 ؛ وعبدالقادر حسين ياسين " الاغتيال الجماعي للشخصية العربية " مجلة كلية الملك خالد العسكرية ، العدد 38 صيف 1413هـ) ، ص ص 112 114 ؛ ويذكر عبدالقادر حسين ياسين أنه كتب عن هذا الكتاب في الملحق الثقافي للمجلة البريطانية The New Stateman .

176) محمد عابد الجابر ، تكوين العقل العربي ، (بيروت : دار الطليعة ، الطبعة الأولى ، 1984م) ، ص 76 .

177) محمد عابد الجابري ، المرجع نفسه ، ص 77 .

178) محمد عابد الجابري ، بنية العقل العربي ، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية (الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي ، الطبعة الأولى ، 1986م) ، ص 11 .

179) محمد عابد الجابري ، المرجع نفسه ، ص 46 .

180) محمد عابد الجابري ، المرجع نفسه ، ص 191 .

181) محمد عابد الجابري ، المرجع نفسه ، ص 245 .

182) محمد عابد الجابري ، المرجع نفسه ، ص ص 245 – 246 .

183) محمد عابد الجابري ، المرجع نفسه ، ص 247 .

184) David Justic, The Semantic of Forms In Arabic, In the mirror of European Languages (Amesterdam / philadelphia, 1987).

185) نعام تشومسكي ، اللغة ومشكلات المعرفة ، ترجمة حمزة بن قبلان المزيني ، (الدار البيضاء : دار توبقال للنشر ، 1990م) .

186) جون ليونز " مدخل إلى اللغة واللسانيات "، ترجمة حمزة بن قبلان المزيني ، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود ، م14 (1)، ص ص 212 219 .

187) محمد بن إسماعيل البخاري ، المرجع السابق ، ج2 ، ص 508 .

188) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق J. Barth وآخرين ، مصورة مكتبة خياط ، (بيروت : مكتبة خياط / 1965م) ، القسم الأول ، ج3 ، ص 1550 ، كما ورد هذا الاستعمال في حديث أورده البخاري ج2 ص 283 نصه : " ودعا حالقه فحلقه ، فلما رأوا ذلك (الصحابة) قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً ".

189) الطبري ، المرجع السابق ، القسم الثاني ، ج9 ، ص 1455 : الطبري ، المرجع نفسه ، القسم الثاني ، ج9 ، ص 1499 .

190) أبو الفرج الأصفهاني ، المرجع السابق ، ج 7 ، ص 82 .

191) أبو الفرج الأصفهاني ، المرجع نفسه ، ج7 ، ص 313 .

192) الفراهيدي ، المرجع السابق ، ج1 ، ص 152 .

193) محمد خليفة التونسي ، أضواء على لغتنا السمحة ، (الكويت : مطبعة الحكومة) كتاب العربي، الكتاب التاسع ، 15 أكتوبر 1985م .

194) أبو الفتح عثمان بن جني النحوي ، المنصف : شرح الإمام أبي الفتح عثمان بن جني النحوي لكتاب التصريف للإمام أبي عثمان المازني النحوي البصري ، تحقيق إبراهيم مصطفى وعبدالله أمين ، (القاهرة : شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر ، الطبعة الأولى 1373 هـ 1954م)، ج1 ، ص ص 276 279 .